



قصص مختارة



لحظة لقاء

مجموعة قصصية

د. نعيم عطية

إهداء 2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

قصص مختارة

حظرة لقاء

مجموعة قصصية

د. نعيم عطية



الجمعية المصرية للمساهمة في الكتاب

نجوم کشتی

* أقبل الصيف الطويل الحار • ومضى وئيدا ثقيلًا حتى
انتصف شهر أغسطس • فأصبح النهار فى المدينة الكبيرة بين
جدران الأسمنت المسلح ، وعلى أسفلت الشوارع ، قرصا برونزيا
ملتهبا •

لم يكن زيد يحس بأنه يحيا الا عندما يوغل الليل ••
فترة القيلولة يلقي بجسده المهدم على فراشه •• يجاهد حتى
يطرد عن ذهنه مشاغل المكتب ، فاذا راح فى اغفاءة أيقظته جلبة
العربات فى الطريق فينهض غارقا فى عرقه • لا يلم شتات جسده
الا بعد أن يصب عليه كيزانا من الماء الذى دفأته الشمس فى
المواسير طوال فترة الظهيرة • كان يطرد الصداغ بأن ينحنى تحت
الصنبور •• كمن يسلم رقبتة الى نطح الجلاد •• فتجرى المياه
على رأسه ورقبته وكتفيه وظهره وصدره وربما وصلت الى بطنه
وعجزيه •

ثم ينزل الدرجات ويتلوى مع الحوارى والدروب الهابطة
النازلة .. قاصدا مقهى فى وسط المدينة يجتمع فيه أشـتات
مختلفة من البشر القاطنين علب السردين المحشورة فى مجتمعات
اسمها عمارات .. يشربون المياه الغازية ويلهثون على الكراسى
مثل سمكة فى اناء .. مثل فأر فى مصيدة وهم بانتظار نسمة
تهب .. يرهفون السمع لها .. ويطرصدونها من بعيد ..
يغيرون وضع مقاعدهم أكثر من مرة فى الأمسية الواحدة ..
فتارة يجعلون واجهتهم الى الميدان الكبير الذى يتوسطه تمثال
لا يأبه بحر الناس ولا يبردهم ، يلبس منذ عشرات السنين معظما
سميكا أخضر مع الزمن ، كما أخضر طربوشه المائل على جبينه ..
ينظر الى الناس بنظرات محملقة ويسائل نفسه ما الذى جعل
الشوارع تمتلئ بالتماثيل ؟ .. وقد اتخذت يمامة رمادية مكانها
المختار على كتفه اليمنى وراحت فى النوم غير آبهة بصفارات
المروور وصخب العجلات وصيحات الباعة .. وتارة يجعل زبائن
المقهى العتيق واجهتهم الى الحارة الجانبية التى يسرى فيها تيار
رطب فجائى طورا من الشمال الى الجنوب وطورا من الغرب
الى الشمال الشرقى .. فاذا كان التيار من الجنوب الى الشمال
اكتسح معه هبات من الغبار ..

ألقى زيد بجسده على كرسى من الخشب الى جوار منضدة
ازدحم حولها معارفه .. تعالى صوت النرد، وطرقعات الطاولة،

وكركرة الشيشة، وصيحات «كش وزير» ونداءات بائع الفانلات
وأمواس الحلاقة والمناديل .. وصرخات آكلة النار ، والبيانولة
العطلانة التي تصدر منها النغمات المألوفة عرجاء شاكية تأكل
التروس وقلة التزيت .. بل وباعة الفراخ .. والفزدق .. - ان
كان ثمة فزدق - والأكواب الكريستال .. والصيني ..
والامشاط وولولات الشحاذ الأعور .. أشياء تعطى الاحساس
بأننا على قيد الوجود .

سرح بصر زيد عبر الشارع .. استوقفته على الطوار
المقابل شجرة تكاد تكون جرداء .. وبجوارها عمارة جديدة
صاعدة .. خيل الى زيد ان الأغصان تبوح له بشيء .. صمت
ما حوله .. سمعها تهمس اليه .

- لمن البقاء ؟

لم يدر لسؤالها اجابة .. تغيرت الاضاءة . بدا الوجود من
حولها بنفسجيا .. شجرة فى مدينة ، يحاصرها أسفلت الطريق،
ويخنقها دخان المصانع . والنسوة يلقين مياه الغسيل عند قدمها
فتمتصه جذورها العطشى وتلتهب ، وتحمله أغصانها الى أوراقها
فتذبل وتتساقط دموعا . الحوذيون الى جذعها يربطون أفراسهم .
السكرارى فى الليل على صدرها يرتمون ، وهى فى الليل تظل
ساهرة حزينة .. الأطفال على ساقها يبولون ، وهى صاغرة
كليلة .

اهتزت أطراف أغصانها •

أوراقها تبحث عن نسمة نقية ، بكل عناء • • لم تعد تقوى
على الوقوف ممشوقة مرفوعة الرأس فتية • شاحبة هي شقية •
تكاد تختنق •

تنهدت • مضت فى شكاتها :

— عجوز أنا رغم اننى فى ريعان الشباب صبية •
مالت الى العمارة من خلفها ولا زال طلاؤها لم يجف •
نكست الشجرة رأسها وقالت :

— وقد سمعت بالقرب منى المعاول تدق الأرض ، ورأيت
الفعلة يرمون السلاح ، ويضعون الطوبة فوق الطوبة •

اختلج صوتها ، كما لو كان قد جثم قاتل على صدرها :
ثم صاحت تستغيث :

— بالله نسمة نقية ! نسمة نقية • • تبرد النار التى فى !
نهض زيد • أخذ كوبا من الماء • ذهب اليها وألقاه عند
جذورها العطشى • ربت على جذعها ، فمنذ صغره كان يحب
الشجر ، وكان يقول لأمه « حبيبتى شجرة عجوز ، كلها بثور
وندوب » أنت أغصانها • ثم قالت :

— ارتفعت الى جوارى عمارة ، واشرابت تناطح السحب •
•• وتعالى الديب على أسفلت الطريق •• وأقبل السكان
وسكنوا •

ثم صمتت • لم تغالب ألمها ، فجاء صوتها متكسرا :
— سمعت البعض يحدث المالك أمس ، ويشيرون الى ••
فهمت اننى لم أعد مرغوبة • أغصانى وأوراقى تحجب عن السكان
منظر الميدان • يالى من شقية !
ثم اختتمت كلامها ، كما لو كانت تسير الى ساحة الأعدام :
— باكر ستأتى البلدية ، وتفسح المكان للوحوش
الضارية ••

نكس زيد رأسه • صدق على كلامها قائلا :
— للغيلان بلا قلوب ، أهل المدينة !
فتحت اشارة المرور • انطلقت السيارات مسرعة ، تنفث
الدخان من خلف ، وتصخب عجلاتها ومضخاتها وتروسها
الحديدية •

— التفت زيد نحو معارفه بالمقهى •
أدرك ان الليل يمكن أن ينصرم دون أمل • آثر أن
يصعد الجبل كما أصبحت عادته فى الآونة الأخيرة •• حيث
تتسع الأرض فى ضوء النجوم ، ويفرق الضجيج فيها حتى يكاد

يكون الصمت أزليا .. عالم شفاف لا يخطر ببال أحد من
المحملين في أضواء المدينة .

سار زيد في الطريق . تحت نعل حذائه جثة ، كلما مشى
سمع قرقرة عظامها . لا يعرف ماذا يفعل . يخشى اذا خلع حذاءه
ان يمرض ويمسى جثة هامة تدوسها النعال .. فكر أن يقفز
في الهواء ، أن يطير ، لكن كان من المستحيل على مثله أن يطير .
مضى زيد يسير في الطريق الصاعد على سفح الجبل ، محنى
الجذع ، يقاوم الجاذبية التي تشده الى أسفل .. وهبات الهواء
التي تدفعه في صدره .. يدور كلما دار الطريق ، ويستقيم
اتجاهه كلما استقام .. ابتعدت المدينة .. تبددت أصواتها ..
ولاحت أضواؤها من بعيد كآلاف الزوارق المضيئة في بحر
مغلق . عوى ذئب في أحد الدروب الجانبية .. تحت .. تمهل
زيد .. أطل عليه .. أعادت تلك الهيئة الضارية للوجود كل
توازنه . ها هو زيد يصعد المنحدر في هدوء ، وقد تحررت
خطواته . كثافة الجو تخف . سهل العبء على كاهله .. نظر
الى المدينة .. ها هي ملقاة عند قدميه .. تتوجع جاحظة العينين
.. تلهث في شقاء .. وتجاهد للوقوف على ساقها لتمضى فرحة
الى البالوعة . وعلى السفح تقف الأشجار المهية الشامخة ،
ترشف ظلالها السوداء وقع الاقدام على صخر الطريق الوعر ،

وترقب متوجسة الصاعد فى طريقه المتعرج ليختفى عند منحنى
الدرب الذى يضيع فى الطبيعة اللانهائية •

ستائر كثيفة من السكون •• كهربان أسود •• تيار من
الذكريات ينساب فى صمت •• جلس زيد على صخرة منعزلة
يرنو الى السماء من فوقه •• ذكريات بعيدة •• تذكارات طينية •
غاصت المعديّة فى النهر •• فلاحون ومواش لقوا مصرعهم ••
رفست دابة القاع المتآكل •• خرقة حافرها •• تسربت المياه من
الشقوق •• كانت المعديّة عطشى •• لم يتمكن الأطفال على
الأخص من النجاة •• ولم تنتشل كل الجثث •

طل فأر رمادى من جحر قريب ، وقال باستخفاف :

— زيد من الناس بالخارج •

سألت الفأرة من داخل الجحر :

— أى زيد هذا الذى يترك صخب الحياة فى المدينة ،

ويجىء الى صمت القبور هنا ؟!

— انه يتطلع الى فوق مذهولا ويتمتم ••

— ربما عاشق ••

ثم تسرب الارتياب الى صوتها :

— أو ربما هارب طريد • يطلب الاختفاء عن العيون •

يتلمس الأمن والنجاة •

— هؤلاء البشر مخلوقات حقيرة • • ومغرورة أيضا • تدعى
الصمود وهى تفر • قدم الموت الثقيلة تطؤها فى كل مكان •
ليس لها جحور تحتوى بها مثلنا •

أدار عينيه الصغيرتين فيما حوله وقال :

— شىء رائع • أرى الأرض من نافذتى • لا صوت يبدد
هذا السكون المطبق حتى لأسمع نبضات قلبى !
زاد صوت الفأرة الجميلة انكتاما • كانت منشغلة بقرض
شىء داخل الجحر :

— يبدو انه منظر ممتع حقا ؟

— ليتنى أستطيع أن أصفه • تعوزنى الكلمات دائما •

— ترى ، هل بدأ موسم الأوكازيونات هناك ؟

— يبدو الأمر مبالغا فيه • ألا توافقيننى ؟

— أعرف • للأوكازيونات فعل السحر دائما •

— لا أقصد الأوكازيونات • أعنى الاعتقاد بأننا المخلوقات
الوحيدة فى هذا الكون • ليس بالسهل التصديق • قد لا تكون
ثمة أنماط أرقى منا • • لكنه شىء بعيد الاحتمال أن تكون القدرة
التي بثت الحياة والنظام فى جحورنا قد حصرت الخلق والذكاء
كله فىنا •

خيمت برهة • رفعت الفأرة المختبئة صوتها من أعماق
الجحر :

— هل أعد لك قزمة من السجق ؟

ادار رأسه ، وأدخله الجحر • أبقى راحتيه الصغيرتين
متعلقتين بنافذته كأنه يخشى السقوط • تشبثت مخاليه بحافتها •
جاء صوته مكتوما :

— الجحر ملئ بما لذ وطاب • أريد وجبة كاملة •

— حسنا ، عليك الانتظار بضع دقائق ، حتى أعد لك بعض
مكعبات السكر •

تأمل الفأر الكون الرحيب من حوله مليا • حصى رمادي
أبيض برونزي • الأشجار من بعيد اجرام عدوانية غارقة في
ظلالها • وفدت دقائق ساعة الجامعة من بعيد ، مخنوقة خافتة •
أجفل الفأر ، وانسحب داخلا بسرعة •

أفاق زيد كما لو كان ثمة منه مركب تحت فروة رأسه •
عالم غريب • أفق منحن • نجوم متناثرة • كرة زرقاء يسبح
نصفها في الظلام • ظلال • ظلال • كأن الزمن قد توقف •
والمكان أرجوحة رجراجة • كأنه راقد في سريره يرى حلما •
الشباك في غرفته مفتوح ، ونسمات الليل تدفع النجوم الفضية
البعيدة في رفق الى أحضان الستائر الشفافة • لا شيء يعادل

الابتعاد • الشوارع والحواري والبيوت والأحياء « تحت »
تتكاثر مثل أورام خبيثة لا ضابط لها • كان زيد يريد شيئاً له
وحده • لا يتعقبه إليه في عزلة أحد • شيئاً صغيراً ، لا يشاركه
فيه غيره • لا يريد أقنعة خزفية ، أظافر مصقولة ، زهوراً وحلوى ،
ألا غيب • • وابتسامات • • وبيغاوات ملونة • • الناس ينظرون
إليه • • يخشى عيونهم • يخافهم • لفتاتهم تبعث الذعر وتسرى
الرعدة في عظامه • لم ينظروا إليه ؟ الآن أظافره تضايقهم ؟ أم
لأن الشوك يغطي جسده ؟ أهذا سبب حسده ؟ • • عطس ذو
اللحية الحمراء في وجهه • الوجود يفرق ، في النفق المعدني من
حواله • تماسك • وتشبث بالصخرة الممتدة فوقه • وعلا الطنين
والضحك والصراخ والأنين • وصاح الكمساري بصوت عقيم :
الجنة المحطة القادمة هرولت الثيران البطيئة الى الباب تنطحه
بقرونها الحديد • انحشرت في الفتحة الضيقة • عم الوجود
ضوء أزرق • كنا نغرق • تناطحت الثيران ، وبقرت البطون •
سال الدم على السيقان • تناثرت في المحيط الاشلاء والشهب •
قام القاعدون على الكراسي ، وصفقوا ، توات الخطب • ثم
صفر الكمساري : جهنم المحطة القادمة • تعالى الصخب ، وعم
الهرج • التفت الناس الى ، حدقوا في • تملكني الهلع ،
انكشيت وتراجعت • • يالله ، لم ينظروا الى هكذا ؟ أضحى

الوجود من حولي ظلاما • تراجعت ، وتراجعت ، وتراجعت •
ومضى السفين في طريقه منطلقا • وبقيت وحيدا في العدم ،
أجري متخبطا ، على شاطئ الشمس وقد جفت الدماء في
عروقي • ومن حولي العدم أضحي تجربة أرجوانية • في نفسى
التي سرت فيها الرعشة المظلمة عند الجذور ، وفي الساق ، وفي
الأغصان اليابسة •

كانت هذه رقصة كل يوم ، من البيت الى الديوان • في
مركبة مثل جاموسة حمراء متخمة • كان لابد أن يلوذ زيد
بالجبل الرحيم الخالي حتى يجمع شتات نفسه في ليالى الصيف
الحارة • انه يذكر الآن رفاقه في المقهى • يكاد يراهم • في
أجسادها العتيقة المهدمة تجلس أرواح العجائز • لابد أن تيسيرا
يرشف فنجان الشاي الأسود ويشعل أعواد الثقاب الواحد تلو
الآخر لتنفث النار في غليونه • وتيسير الثالث يطلب قدحا رابعا
من الجعة المثلجة • ما أسهل المتعة • زر صغير • تضغط عليه
• وكل شيء يدور • ألوان حمراء وخضراء وصفراء •
وابتسامات • ما أسخف كل شيء • أما تيسير الثاني فيحكى
للفراق سبب غياب الصديق تيسير السادس عن المقهى • تيسير
الخامس يلقي بأسئلته المبلبلة على الصحاب « أيهما وجد قبل
الآخر • الليل أم النهار ؟ » وكان لا بد أن يكون وراء وجهة
النظر الأولى منطق وحجج ، ووراء وجهة النظر الثانية منطق

وحجج أيضا • الوحوش الحزينة تجلس على الطبلية • • كم هي
ضجرة بالحياة التى تحياها • • وكم ترتعد خشية ان تفقدها • •
فكم تحب الحياة تلك الأرواح المبليلة المتناقضة •

زعى على غصن بعيد طائر من طيور الليل ، ثم ما لبث ان
أطبق الصمت من جديد •

نظر زيد الى السماء ، كما يفعل دائما ، بانتباه كبير • كانت
السماء تتكشف الليلة بريق ووضوح غير معهودين • شاهد
شيئا يصعد من نجم الى نجم • قال لنفسه : مركبة فضاء • ثم
أمكنه أن يتبين بعد هنيهة ان ما شاهده كان دراجة يقودها راكبها
فى هدوء عابرا بها السماء من طرفها القصى الى طرفها القصى
الآخر • كان يسير بمطيته صعودا وهبوطا كما لو كان يصعد
تلالا ممهدة وينزل عليها • كانت العجلتان تدوران بلا صوت •
وبدا الراكب فى قميصه وسرواله الأبيضين المنتفخين كأنه زهرة
لوتس خفية • كان فى بعض الأحيان ورأسه الى أسفل أشبه
بجنين فى رحم الليل الرحيب •

قال زيد معجيا : ماله من منظر رائع ! ينساب بين النجوم
كفراشة ، كمنحلة دؤوب تطوف بالزهور فى بستان !

تعرى الراكب فى سحابة • انقلب فجأة وتحطم • هوى على
الأرض • جرى زيد نحوه ، وهو يلوم نفسه قائلا « حسدته ،

كعادتك • شىء غريب • ما أن تعجب بأحد حتى يحط عليه النحس، وربما الخراب ! » وذلك رغم أن زيدا لم يكن من ذوى العيون الزرق ، وهؤلاء يقال عنهم أنهم حسودون بطبعهم • من الذى يقول ذلك ؟ أمه بالطبع • كانت تقول ذلك نقلا عن جدته سيدة العارفين • كانت عالمة ببواطن الأمور • تنظر الى النجوم بعينيها اللتين كاد يختلط بياضهما بسوادهما ، وتقرأ الطالع ، وتحدد كثيرا مما سيقع فى الغد القريب أو البعيد • كانت أيضا تصنع أحجية • • صغيرة مبسوطة • • تعطيها للمحبين الذين يذهبون للقاء ، وللتلاميذ عشية امتحاناتهم ، وللتجار الذين يخشون بوار تجارتهم أو يطاردهم مأمير الضرائب يطالبون الاطلاع على دفاترهم ، وللزوجات اللاتي سافر أزواجهن الى بعيد • كانت تعطى الحجاب لصاحبه ، وتحذره من أن يفتحه حتى لا يصيبه شر كبير • ذات يوم جرؤ أحد التلاميذ الخبثاء ففتح حجابا جلبته له أمه من جدتى غفر الله لها ، فوجد مكتوبا به على قصاصة ورق أصفر قديم « انجح • • ما تنجح • • شالله ما تنجح • • تنجح • • شالله تنجح • • ما تنجح • • شالله ما تنجح • • » كل الصفحة وظهرها لم يكن عليها سوى هذه العبارات • وقد نجح الفتى ذلك العام نجاحا باهرا ، ولكن أصابه شر كبير • كان بإمكانه أن يلتحق بكلية الشرطة ويتدرب على الكلاب البوليسية ، أو بكلية المبعوثين الدبلوماسيين فينعم برغد العيش متنقلا بين نيويورك

وبكين • كان مجموعته يسمح بذلك لكنه أصر ، فدخل كلية
لا يتعلم فيها الا كلاما •• وأى شر أدهى من أن يصر المرء على
ضرره ، ويصم أذنيه عن نصح الناصحين •

جرى زيد نحو الرجل المحطم • جرى فى أعقابها الفأر
الجبلى • كان حذرا ألا يدوسه حذاء زيد ، وهو يهرول متخطبا
بين الصخور والحجارة • همس مناديا فآرته • ثم وقفا وراء حجر
قريب يتابعان زيدا ورفيقه •

قال النار :

— كل يوم فى معامل الأبحاث مئات من اخوتنا ، جردان
كبيرة •• وفيران ولينة •• اناث وذكور ، تلقى حتفها •• تحت
ضربات المطارق •• فى المحاليل ، ولا أحد يكثر •

أشارت الفأرة بشواربها الى الرجل المحطم ، وقالت :

— فى داهية من يموت •• سنملا ببقاياهم جحرنا ••
ترى ماذا يحمل فى حقيبته المعدنية وراء ظهره ؟ وددت أن تكون
فيها بعض أدوات الزينة • فقدت منى زجاجة الاكلادور • وأصبع
الروج على وشك أن ينقرض •

كان الرجل المحطم يتنفس بصعوبة • وقد ازرق وجهه •

ركع زيد الى جواره وسأله فى لهفة :

— يامن أتيت من بعيد ، قل لى ما الذى تعرفه عن هذا العالم .. والعالم الآخر ؟

فتح راكب الدراجة شففيه قليلا مرتين أو ثلاثة ، ولكنه لم ينبس بكلمة .

أعاد عليه السؤال . ألح . لم يجب . فوجه اليه سؤالا آخر على عجل :

— أرجوك ، أيها الطائر الحبيب ، يامن تجولت هناك ، قل لى اذا كان للانسان أمل .

خيم الصمت ذاته ، ولا اجابة .

— انى أتوسل اليك . قل لى ! هل للانسان أمل ؟

ندت من الرجل المحطم حشرة ثم همس بصوت متكسر :

— كنت أؤدى واجبى .. بأمانة .. بلا جلبه عالية .. هزة غريبة فجائية .. طقطقة غامضة . زهور كثيرة هناك .. فى جيبي زهرة واحدة .

سأله زيد وقد استقرت أنظاره على شففى الرجل المكوم على الأرض :

— زهرة السعادة ؟

لا اجابة • سال خيط من الدم الأحمر القانى من جانبى
فمه •

أردف زيد يسأل :

— الحقيقة ؟

زحفت غشاوة شاحبة على وجه راكب الدراجة •• بدا
وجهه مثل وجه القمر فى ليالى الخريف •

— الحياة ؟ الموت ؟

لوح الرجل المحطم يديه فى حركة واهنة أخيرة وهمس :

— الروح •• بالروح •• تعرف !

كانت قبضته مطبقة • هجم عليها زيد بضراوة يحاول فتحها
عنوة • اتزع منها شيئا يبدو أنه كان متناهيا فى الصغر ••
ذرة •• لم تبين بين أصبعى سبافته وابهامه وهو يرفعهما الى الضوء
عاليا منتصرا •

قال الفأر الرمادى بصوت تبدد فى الهواء :

— لا شيء •• بذرة وهمية ••

أردفت الفأرة :

— هى بداية الشقاء دائما •

— وربما الدمار أيضا •

— عندما يجد الكنارى باب القفص قد انفتح يخرج ••
يطير بعيدا •• ويعتقد ان قضبان العبودية قد انكسرت الى
الأبد •

صاح زيد يحدث نفسه ، أو ربما يحدث السماء الصامته
ذات العيون الألف :

— وجدتھا • ها هي في جيبى الآن •
حلق اليه راكب الدراجة مركزا نظراته الحزينة في عينيه •
ثم مال رأسه المشجوج ، ولفظ أنفاسه •
مضى زيد فى صياحه :

— يقولون الزهور تحتاج الى مائه والفاكهة الى ألف ••
ارتعش صوته :
— لكننا ماعدنا نثق •

تماسك صوته • أشار الى قبة السماء المليئة بالثقوب :
— لنهرب من الأرض القديمة الى الأرض الجديدة •
انخفض صوته • نظر من حوله :

— نحن على الحدود •• البحر من فوقنا عميق الزرقة ••
عبث الهواء بشعره • لوح بقبضته المطبقة ، وصرخ فى وجه
الليل الصامت :

— لكن الباب سيفتح •• المزلاج يتزحزح •• والقضبان
تذوب •• مثل أعواد غاب تتكسر •

دقق النظر الى أصابعه :

— ها هي نقطة •• سهم يشير الى أعلى •• حتى أولئك الذين
لم يولدوا بعد هنا في يدي •

رفع وجهه الى النجوم وهمس في لهفة الانتصار :

— حبيبتى لم تمت ، لا زالت تمشى فى ظلال السحر ، فوق
الفصون وهامات الشجر • حبيبتى لا زالت حية ، تطوف الحدائق
والحقول ، والغدران والجسور • ربما أتت مع الغروب ، أو ربما
أتت اذا الليل انتصف •

انكسر المحار • فاحت رائحة الصخور •• الألوان باهرة
•• النظرة عذراء • ملأ رئتيه بالهواء الرطب :

— الشباك ممزقة لكن الصيد وفير •• بالنهار ، أبحث عن
صور حلم ضائع •• أبحث بين يدي •• عند مفرق الطريق ••
اينما قادتني قدماى • عندما أرى عيني قطة •• عندما أشم عطر
ياسمينه •• تضىء فى جوف المحيط شمعة ، وأعود الى حلمي
القديم !

تعالى فجأة من أسفل الجبل أصوات تشق الظلال ••

صفارات الشرطة •• أجراس الاسعاف والمطافئ •• ووحدات
الانقاذ •• والدفاع المدنى •• ولجان الاتحاد •• ومندوبو
الرياسة والنقابات •

هب الفأر هامسا الى فأرته :

— لنهرب •• أقدام الدمار •• آتية •• تدب بسرعة
نحونا •

قالت الفأرة باحتقار وهى تجرى لاهثة فى أعقاب زوجها :

— يقولون انها المدنية •• جلبة عالية •• تسحق كل شئ فى
طريقها •• أسراب جراد •• تتغذى على أنعام الجاز والخنافس •

دب الارتباك فى قلب زيد • أحس بقوة تدفع ساقيه ، وتطلق
لها العنان • نزل من الجبل يتدحرج • يلهث • يتخبط • أصيب
فى جبينه •• وركبتيه •• تمزق سرواله ، والتوت ساقه • ظل
يعرج نازلا • فقد توازنه أكثر من مرة • ارتفعت ذراعه فى
الهواء ، وانفجرت أصابعه • جرى • جرى • من الجانب
الآخر • انه لا يريد أن يلتقى بالبوليس • يريد أن يفلت بغنيمته
ولا يريد تحقيقات ومحاضر •• وسين وجيم •• وبخاصة انه ترك
بطاقته بالبيت فى جيب سترته •

فتح زيد باب غرفته • ألقى بنفسه على أول مقعد لقيه ،
وهو على أى حال المقعد الوحيد فى غرفته ، كرسى صغير

مستدير بمسند من القش • مامت قطته وتمسحت بساقيه • أغمض
عينيه برهة ، ثم تذكر أصبعيه • • السبابة والابهام • • رفع راحته
اليمنى سريعا • حلق فيها • • كانت فارغة • رفع يده الأخرى
فى رعب ، وهو يعلم ان ما يبحث عنه كان فى يده اليمنى •
انتفض واقفا ، وصرخ :

— الزهرة !

ثم صاح فى حيرة :

— البذرة ! الذرة !

سقط على الأرض يبكى • مد ذراعيه المتسلختين يمسك
بهما ظهر الكرسي وقد دفن وجهه فى قاعدته •

لكنه مالبث ان هب واقفا • ربما وقعت منه على السطح
الآخر من الجبل • أجل • هو ذلك • دبت الشجاعة فى أوصاله •
شمخ برأسه عاليا ، ونظر الى الشمس التى بدأت تطلع عند
الأفق ، وتبسط اشعتها البرتقالية على أسطح المنازل وواجهاتها
الشرقية • أجل ، وقعت هناك بين الصخور • • فى مكان ما • •
فى فجوة ما • • فى جحر ما • • هى هناك • • فى الجانب الآخر
من الجبل • • لن تطولها يد أحد غيره • لا أحد غيره يعرف أنها
سقطت • • هو وحده سيعثر عليها • • سيجد فى البحث عنها •
سيصعد وينزل يبحث عنها • انها كانت فى يده • • ذات يوم

كانت معه • كانت فى قبضته، فى حوزته •• أى ريح مشثوم اطارها
من بين أصابعه •• أى نحس ذلك الذى حل به لحظة انحداره
على الجبل • هل كانت بين اصبعيه حقا ؟ هل كانت ؟! متى ؟! متى ؟
أمس ! •• عادت قطته تموء •• يبدو ذلك الأمس بعيدا ••
بعيدا •• كانت معه •• فى قبضته •• انه يذكر
جده الأكبر •• كاتم الأسرار السموية •• وعم عمه البعيد ••
أمين الأسرار التى لا يراها الا شخص واحد •• وجد جده
الآخر ركب البحر الى أقاصى بلاد بنت •• أمواج •• رمال
بيضاء •• رمال صفراء •• أمواج •• أمواج •• صخرة فتت
سحقت ذرات •• مدائن •• مدائن مطموسة •• جزر غارقة ••
آلاف السنين •• نجوم كثيرة •• نجوم كثيرة •• تلمع وتضىء
•• ثم تخبو وتهوى ، وتضيع ، كأنها لم تكن •• ثم
تعود الى صفحة السماء الداكنة المترامية فوق هامات التلال
والجبال •• ما اندثر أكثر مما وصل بكثير •• جدران
ونقوش وقلائد وتماثيل ترقد صابرة صامته تنتظر •

نظر زيد فيما حوله شارداً ، وصاح يقول :

— آلاف السنين فى الظلمة •• كفاك • العقوبة انقضت
•• انهض •• انفتحت الأبواب الصدئة •• انفتحت التوايت ••
ثم حلق فى أحد الأركان ، وقد انكمش • ومضى يحدث
نفسه :

— انشقت الأرض .. خرجت حشرة .. ذات سيقان من
القطيفة ..

قفزت القطة الى النافذة الموازية .. كان بين انيابها فأر
رمادى .. واختفت خارجة .

سيغربل كل تراب الجبل • سيدقق النظر فى كل حصاة •
صغيرة كانت أو كبيرة .. مستديرة أو مضلعة • لن يتعلل بعد
المسافات ، وتعذر قياسها • ليس ثمة جسم لا يعثر عليه • لن
يثنيه زمهرير أو جحيم أو سم • لن يعود الى جحره خاوى
اليدين .. فهو ليس حشرة • هناك عنصر فى صالحه دائما ..
فالاتجاهات يمكن أن تتغير ، وسيعالج النظريات القديمة معالجة
جديدة .. وسيكتشف منها جديدا تلو جديد • ان الخيال على
حق ، ولكن من أجل أن يصدق ذلك يجب الا يحسب الأمر
بحساب السنين والقرون ولا حتى بالحضارات ، بل بحساب
الزمن اللانهائى • الزمن الذى يتضمن امكانيات غير محدودة
.. سوف يلحق جسمه بخياله • وسيثبت ان كل شيء ممكن •

نهض زيد • ومضى الى المرأة المشروخة المعلقة على الحائط
فوق الحوض • أخذ يحدث نفسه أمامها كما لو كان يريد أن
يستمد من صورته عزما جديدا • سيمسح سفح الجبل شبرا
شبرا ، وهو واجدها • النقطة الجذباء التى تنتهى اليها خطواتنا
.. نظراتنا .. أنفاسنا .. اسماعنا .. صرير أسناننا .. كل

خلجاتنا وهواتنا .. ربما لم تكن مواتا .. ربما كانت التحذيرات
باطلة .. أو ربما لم نقرأها كما يجب .. ربما .. ربما ..

أنعم زيد النظر الى هالتين من السواد حوطتا بمقلتيه .

ربما هذه تعذبنا .. تقض مضاجعنا .. لكن .. لا بد أن
نواجهها بعيون مفتوحة . بأذان مرهفة .. بيقظة . وتشوق ..
بلهفة وترقب .. لا بد أن نحقق في الظلمات .. ونرشف السمع
في القلوات .. وان نكون في كل لحظة على أهبة الانتظار ،
ولا نقول : لاشئ .. فربما تنبت في صحراء الصمت همسة
.. ربما تومض في السماء الضريرة ومضة .. ربما هبت على
الجذور الجذباء نسمة .. ربما اشتدت سواعدنا وتسلقنا الجدار
.. ربما انفتحت النوافذ المغلقة وهتكنا الأسرار .. ربما أمطرت
السحب السوداء .. ربما تفجرت الينابيع في البیداء ، وانحسرت
الرمال من طريقنا ووصلنا الى واحة واسترحنا .. ربما حالفنا
الحظ ، واكتشفنا هذا الذي يؤرقنا .. من يدري ؟ ربما ..
ربما .. ربما ..

ابتعد زيد عن المرآة .. ادار لها ظهره ..

أجل ، انه واجدها . ايها القلب الحافل الأحلام .. بلواك
أعرفها .. اليدان في الوحل غارقتان .. من يدري ؟ قد تصحو

ذات يوم فترى اليدين السمرأوين عامرتين بالنجوم — بعد أن
طهرهما المطر .. لن يكون لسعادتك ، أيها القلب ، عند ذاك
حدود .. ولن يقف عائق فى طريقك بعد ذلك .. ستصبح ، أيها
القلب ملكا على الحقول والصحارى والبحور .. وتتحقق فيك
معجزة مثل تلك التى حققها السيد المسيح عندما بارك وكسر
وكثر السمك .

هدأ روعه ، وسكنت الانتفاضة فى أوصاله .

هز رأسه . أجل ، غدا ، عندما يهبط الليل من جديد ،
ويصبح أكثر الناس عزلة .. سيصبح أقوى البشر .. وحدته
ستملأه قوة .. سيستجمع شتات فكره ويركز على كل خطوة
خطاها ليلة أمس .. كل قفزة قفزها .. كل شبر سلكه .. كل
موضع انكفاً فيه .. سيقتنى آثار أقدامه صاعدا نازلا الجانب
الآخر من الجبل .. وفى هدوء وحدته ستواتيه أعماق الأفكار
وأكثرها صوابا ، وسيبحث بلا اتصالات .. بلا جلبة عالية ..
بدقة وأمانة .. هكذا قال له « ايكاروس » ولا يمكن أن ينسى
ما قال .

لكن الساعة تقترب من الثامنة . عليه الآن أن يتهيا
للديوان . اغتسل .. حلق ذقنه . مشط شعره . عقد ربطة عنقه
حول عنقه . وتأكد من ان حذاءه لم تعلق به ذرة من تراب أو
لطخة شئ من الطين . ثم جمع تقاريره وطوى حقيبة أوراقه .

جرى الى محطة الأتوبيس ليوقع بالحضور فى الساعة والدقيقة
اللتين حددتهما التعليمات ، والا تعرض للجزاءات • وعليه أن
يبدو عاديا طوال النهار • مبتسما متفاهما • يجب أن يبدو
اجتماعيا رياضيا ظريفا متسامحا يضحك لكل نكتة • بالنهار
هو ما يريده الناس أما بالليل فهو انسان حر •

قبل أن يدير مقبض باب غرفته تأكد من أن ازرار سترته فى
محلها ، وعلى الأخص زرارها الأوسط • فلا يقبل المدير من أحد
أن يعرض عليه أوراقا الا وقد عقد سترته • ألقى زيد نظرة
أخيرة فى المراة ليتأكد من أنه يلبس قناع الانسان اليومى حتى
لا يثير حوله الشبهات ، فيعوق ويمنح عملا اضافيا فى المساء
ويغرى بأجر اضافى سخى ، وهو ضعيف أمام المغريات •
سيحوط به الشرطة وحاملو العدسات وأجهزة التسجيل والأبواق
وتكتب عنه الجرائد وتنشر صورته فى المجلات ويدعى الى
الندوات ، وعندئذ سيكون نجما فلا يصعد الجبل ، ولا يظفر
بخلوته ، فلا يتسنى له أن ينقب فى كل شبر من السفح • وربما
جرفته اللجان والاجتماعات والمحافل والمهرجانات فينسى أنه
أمسك بأصبعيه ذات مساء بذرة صغيرة •• قد تكون وهما أو
خيالا أو ربما حلما لكنه مازال يشعر بوزنها الأثيرى وبلمسها
على جلده •• انها مستقرة الآن فى مكان ما بين الحجارة أو
تحت نبات شيطاني ينبت من تلقائه على الجانب الآخر من الجبل •

عليه ذات يوم أن يجد فى البحث • سترك المدينة الساجية فى
البالوعة المضيئة تحت • • ويصعد ويصعد • • سينبش التربة
بأظافره فى كل مكان • • فى التراب • • بين الحجارة • • سيقلب
الصخور واحدة واحدة • • سيقطع شجيرات الشوك وليدمى جلده
ولحمه ، وليغلى دمه وليتفجر • • وليسيل خيوطا رفيعة لزجة
على ساقيه • • سيجدها فى النهاية • • ذرة أثنى من أعلى قطعة
من الماس • • مستحيل أن يكون كل هذا العناء عبثا بلا طائل • •
من غير المعقول أن تكون النتيجة لا شىء • • غص • • غص فى
المادة حتى تجد الروح • • يجب أن يجدها • • يجب أن يصعد
إليها إذا كانت فوق • • ان ينزل إليها إذا كانت تحت • • كان
يجب أن يجدها • • كان من المؤسف ألا يجدها • • ما أجمل
الحياة • • النجوم والزهر والسمك والأرانب • • وانين السواقي
فى الحقول • • ما أجمل الحياة • • فراشات الصيف وأوراق
الشجر • • الريح تهمس وتصرخ وتلين • • الكلاب الوفية تنبح
والبومة تصلى • • وعيون القطط لا تطرف • • والشعابين تزحف
• • ما أجمل الحياة ، وما أتعس أولئك الذين ماتوا • • الاعشاش
على الأغصان لا زالت مليئة بصغار الطير • • والشمس لا زالت
تحرق وتضىء • • والبحر يهدر • • والشجر يخضر • • والقمر
الفضى يلمع وراء السحب • • والأشباح تحت الجسور • •
والدموع لا زالت حارة على الوجنات • • والذهب مازال محط

الطامعين •• والطواحين تدور وتطحن وتدور •• وخرير المياه
•• من بعيد •• من بعيد •• ما أجمل الحياة ، وما أتعس الذين
يموتون •• الناس الذين يتسمون وينقضون مثل الوحوش
لا زالوا يتسمون وينقضون •• والنساء الناعمات مثل الحرير
لازلن يفحن فى المخادع بالعطور •• بينما ظلمة الليل تتحول الى
نهار •• والعصفور مخضب بالدماء من رصاصة الصياد •• كل
شئ كما كان •• الوقت يمر ولا أعرف ماذا أفعل •• أنام
وأصحو فى المكان ذاته •• كل شئ كما كان •• ما أتعس الذين
ماتوا •• سحقتنا أقدام حديدية •• ما اتعسنا نحن •• سوف
يجدها •• انه يسمعهم فى طريقه يضحكون •• ، يسمعهم فى
الظلمات يسخرون •• انه يسمعهم •• يهمسون ، ويهمسون ، ياله
من أحق ذلك الذى يخلق فى الظلمات عله يهتك الحجاب ••
ذلك الذى يصعد الطريق عله يبلغ السحاب ! ألا يعرف أنه بعد
أيام أو ساعات ، أو ربما بعد لحظات •• ان عاجلا أو آجلا فى
التراب سيرقد كومة من العظام البالية •• مثلنا ؟! سوف يجدها
فعدم الوجود يعنى العدم أو وجود كأنه العدم •• نحن
نتوالد كالأرانب ، ونموت كالذباب ، ولكننا لا نحيا مثل الأرانب
ولا مثل الذباب •• عقولنا الصغيرة تجهد طوال الحياة فى مشكلة
لا تجهد الأرانب ، ولا تخطر ببال الذباب •• اننا نتساءل فى
جحورنا : لماذا نحيا ؟ •• وعندما ننغرس فى القاذورات نصرخ ،

ونصرخ ، ونصرخ : لماذا نموت ؟ .. بينما نحن نتوالد كالأرانب ،
وكالذباب ، نموت . وبعد أن كان جد جده كاهنا أكبر .. وربما
فرعونا .. سيكون غدا عبدا مملوكا .. جيفة تقذف بها أمواج
القضاء الى كوكب سديمى .. لن يقول لن يجد .. لن يغفل
الأشياء الصغيرة .. كل ما هو عابر سريع الزوال سيوليه اهتمامه
.. حتى لو كان دخانا فى الهواء ، أو نسمة ريح ، أو حفيف
غصن أو زبدا متطائرا من أمواج متلاطمة ، أو ذابلة شمعة على
وشك أن تنطفىء . سيصم اذنيه عن كل هواتف الفشل . وإذا
لم يجد بغيته فخير له أن يموت وهو يبحث من أن يفترس وهو
جالس على المقهى بين قطيع من الأغنام تشغو وهى تعتقد أنها
تزار . مغروزة فى مرحاض وهى تظن انها قد فكت وثاقها ،
وتأهبت للانطلاق .. هى تركب معدية مليئة بالثقوب .. يصبح
فيهم الجرسون .. فى داهية من يموت ، ولا شئ .. ولا شئ
غير ذلك .

نزل زيد الدرجات .

نافورة الميدان جفت .. الشوارع خلت .. النوافذ شاغرة
.. الفيران فى بئر السلم ، تجرى على بطن القطعة الرمادية ،
وتنهش .. كل السكان ماتوا ، حتى البواب على دكته الخشبية
غاب فى سبات عميق .

النخلة والصغيرة

١ - الشيء ..

* فى طريق عودتى الى بيتى ذلك المساء وجدت شيئا
ملقى الى جانب الرصيف • كان ملفوفا فى منديل أحمر •

التقطت الشيء ، وأخذته فرحا الى بيتى •

وما ان فتحته أمام زوجتى حتى صرخت :

— ماذا جلبت الى البيت يا زيد ! هيا ، حالا ، الق به
خارجا ! ..

لم أنجح فى تلطيف ثورة زوجتى • فطسويت اللقافة ،
وأغلقت الباب خلفى ، وخرجت الى الطريق ، وصرخات زوجتى
تودعنى •

قابلت صديقا .. فقلت له مبتسما :

— انظر ، ماذا وجدت ؟

وما ان رأى صديقى ما معى حتى ندت منه صيحة ، وقال
لى باشمئزاز :

— أهذه أصول ؟

ومضى مبتعدا ، وهو يلتفت وراءه يرمقنى بين القينة والقينة
بنظرات اختلط فيها التقزز والخوف ، فخطوت وراءه مناديا :

— انتظر ، سأشرح لك •

ولكن ما أن رآنى أتجه اليه حتى أسرع الخطى •• ثم
أطلق لساقيه العنان •

بقيت وحدى أنظر الى الصرة التى معى • تأملت الشئ فى
يدى وقلبته مسائلأ نفسى ما الذى يجعل الناس يفرون منى عندما
يرونه معى فرارهم من مريض أجرب ؟ لم أجد فى ذلك الشئ
ما ينفر منه ، بل على العكس أحسست بقلبى يطمئن اليه •

هزرت رأسى فى أسف ، مسكتا صوتا بداخلى ، كما كتب
على دائما •

مر على بعد قليل شحاذ ، يبدو أنه لم يذق طعاما منذ يومين،
فمددت اليه يدى بالصرة أحسن بها اليه ، ولكن ما أن نفذت
نظرتة الى ما بداخل اللقافة حتى صاح فى وهو يرتعش :

— أعوذ بالله ! الا تستحى ، يا أستاذ ؟! الله الغنى ! سأمشى
خشية أن يرانا أحد !

ومضى فى طريقه يعرج بأسرع ما يمكنه ، وعكازه يدق على أرض الطريق الصلبة دقات رتيبة متتابعة مبتعدة •

لم أجد بدا من أن أسلم الصرة الى أول شرطى • وبعد بضع خطوات التقيت الى جوار أحد أعمدة النور بشاويش بدين وقف يداعب شاربه ويتفرس فى لا شىء • وعندما اقتربت منه ، أقرأته السلام ، ومددت اليه يدي وهمست قائلاً :
— هذه الصرة ، أنا •••

لكن الشرطى ما أن رأى الشىء يمتد نحوه حتى زار كأسد دخلت فى قدمه شوكة ، وازدادت عيناه الضيقتان ضيقا • انتزع هراوته المشدودة الى وسطه ، وارتفعت يده الأخرى بالصفارة الى شفثيه الغليظتين •

امتلاً الجو من حولى بصفارات حادة مدوية ، أدركت اننى فى خطر حقيقى ، ووجدت نفسى أجرى هارباً من وجه الشرطى ، وكأن ريحا عاتية تدفعنى فى ظهري •

مضيت أعدو الى شارع وأخرج من شارع ، وأدلف من حارة الى حارة • وبعد أن أيقنت اننى قد أفلت من الشرطى ، وقفت أستجمع أنفاسى اللاهثة ، واذا بى أجد قبضتى لا زالت ممسكة باللفافة •

قررت أن ألقى بها الى الطريق ، وأتخلص منها بأسرع وقت • وضعتها — كما سبق أن وجدتها — الى جوار الرصيف ،

ومضيت أتأملها في حسرة برهة • كأن بالامكان أن يغير هذا
الشيء الصغير حياتي •• ان يجعل لها معنى ، اذا ما كنت قد
تمسكت به ، وأوليته رعاية وحنانا • ما الذى ينقص كل علاقة ؟
الثقة ؟! الايمان ؟ الفهم ؟! الاكتراث الحقيقى ؟! وانحنيت أربت
على اللقافة ، كما لو كانت انسانا عزيزا سيفارقنى • قبع
المسكينة الى جوار الرصيف فى دعة واستكانة ، ونكست رأسى
معتذرا مودعا • ثم انصرفت وقد أشحت وجهى عنها كمن أحس
بذنب • وعند نهاية الطريق ، استدرت ونظرت اليها ، واذا بها
تنظر الى فى استعطاف صامت ، فوقفت ، وقررت ألا أدعها
وحيدة ، واختبأت وراء جذع شجرة ضخمة • قلت لها من بعيد
« هل تتوقعين من رجل أن يهدم بيته ويفقد سكنته ويخدش
مستقبله بفضيحة متى كان بإمكانه أن يتفادى كل ذلك بشيء
قليل من التجاهل ؟! » ولكن على الرغم من قوة هذا المنطق ،
فقد هب الصوت بداخلى يعارضنى ويسخر منى •

لم يمض وقت طويل ، على أى حال ، فقد ظهر عند المنحنى
رجل مثلى تماما ، أو على الأقل لم يكن يزيد عنى فى شيء •
وأخذ يقترب من اللقافة ، وما ان مر بها حتى استرعت انتباهه ،
فعاد اليها ، وانحنى يلتقطها • تفحصها قليلا • ثم هز كتفيه فى
استغراب ، ومضى فى طريقه وقد حمل الشيء بين يديه •• كما
فعلت أنا من قبله تماما !

♦♦♦♦♦

قال وهو يمسك قدح الشاي الساخن بين راحتيه :

- وهل تريد أن تصلح الكون ؟ هل هذا من شأنك ؟ ليس الأمر في استطاعتك .

- اذن ، ماذا يجب أن أفعل ؟ أجاري الناس في شروهم ، يا ابي ؟

- لا . كن على الحياد فحسب . ان استطعت أن تفعل الخير في حدود امكاناتك افعله .. والا فلا تأخذ الأمر مأخذ الجد ، وتجلب النكد على نفسك . لا تجعل الندم يأكل قلبك ، ويفسد عليك حياتك . يا بني ، فسد الناس ، ولست بمستطيع أن تقومهم . اني أخرج ألى الناس في الصباح وقلبي يمتلىء بالخوف منهم . وعندما أعود آخر النهار الى بيتي أتجنب الطرقات الجانبية المهمة . أختار لسيري الطريق الرئيسى الآهل بالحركة حتى آمن على نفسى من العدوان .. واذا وصلت الى فراشى خلعت حذائى وحمدت الله على أنه لم يصبني أذى كبير فى يومى .. وأدعو الله أن يحفظنى فى اليوم التالى من أولاد الحرام .. وهل ترك أولاد الحرام لأولاد الحلال شيئا ؟ اسمع نصيحتى . كن على الحياد دائما . قد تدفعك الشفقة الى أن

تعطف على البعض ، ولكنك لا تعرف ما الذى يختفى وراء ادعائهم المسكنة .. تلك المرأة التى فقدت ذاكرتها ، ولا تعرف أين تسكن ، ومن أين خرجت ، وإلى أين هى ذاهبة ؟ هل تعرف ما اذا كانت حقاً فقدت عقلها ، أم انها تمثل أمامك دوراً ، وأنت تبحث لها عن أهلها ؟ وهل تعرف ماذا اتوى لها أهلها .. ولك أيضاً ؟ .. مرة أخرى أقول لك فسد الكون ، وما من صلاح ، فليس لك الا أن تتجنب التردى فى الشباك والحبائل ، وهى منصوبة للأخيار فى كل خطوة ، وعند كل منعطف فح على أهبة الاطباق .

مد العجوز يده السمراء المعروقة ، ووضع القدح الدافئ على المنضدة .

قلت :

— ماذا على أن أفعل ، حتى أدخل ملكوت السموات ؟ قال المسيح اذهب وزع ثروتك على المساكين ، وصف حساباتك مع الناس ، وتعال اتبعنى .. أنصاف الحلول اذن لا تنفع ، وأنت تنصحنى بالحل الوسط .. قال المسيح أيضاً من أحب أبا أو أما أو ابناً أكثر منى فلا يستحقنى . أحمل صليبك واتبعنى .

جذب ياقة معطفه حائل اللون يدثر بها رقبته المتفضنة ، وقال :

— قلت لك • هذه الدنيا فسدت • أكثر من ألف وتسعمائة
سنة مضت على كلام المسيح ، وقد تغيرت الظروف والأحوال
اليوم • يكفي المرء أن يحذر لنفسه •
ضم ساقيه الطويلتين ببطء • كدت أسمع قرقرة عظامهما •
قلت :

— انى أتعذب •• ما يجب •• ما أعتقد انه يجب ••
لا أقدر عليه •• وما هو مستطاع •• ذلك الذى تنصحنى به ••
يصيبنى بالغثيان والتقرز من نفسى •• ليس ما هو أكثر امراضا
للرجل الشريف من احساسه بالعجز عن أن يمضى فى طريق
الشرف الى النهاية • أما منتصف الطريق •• فهو يشعره فى
النهاية بأنه ليس شريفا على الاطلاق •
تطلع الى الظلمة الرابضة خلف الشباك فى الخارج ، ثم
قال :

— يابنى ، يكفي أن تكون مستريح الضمير • افعل
ما تستطيع ، ولا تفكر فيما لا تستطيع • انى أضع رأسى على
وسادتى كل ليلة ، وأروح فى النوم هادىء البال • هذا هو سر
صحتى ، وطول عمري • أنت تعرف اننى بلغت من العمر الرابعة
والثمانين ، ولا زلت مستيقظ الذهن ، لا أشكو من شىء ••
سوى بعض الأوجاع فى مفاصلى وجذعى • لم أندم يوما على
شىء لم أفعله •

خيمت برهة صمت •

ثم نهضنا ليمضى كل منا الى فراشه ، فقد كان الليل قد
أوغل بنا •

قلت له ، وقد هالنى ثقل السنين على منكبيه :

— كلامك سهل ، بسيط ، مشجع ، ولكن •• هنا ••
فى أعماقى •• شيئاً يعضنى ، ويرفض أن يرتضيه •

٣ - نصيحة من استاذ

♦♦♦♦♦

أشار الى أرجاء الغرفة من حوله ، وقال :

— أنظر الى العالم كأنك مخبر سرى •• لا تغرنك الظواهر
التي تكتسى بها الأشياء والأحداث والناس ، بل وأقرب المقربين
منهم اليك أيضا •• بل وعلى الأخص هؤلاء •• كن مرتابا فى
كل شئ ، فكل ما حولك قناع مزيف ، خدعة ، بل أنت نفسك ،
بالنسبة الى الآخرين خدعة •• هل تقرأ الروايات البوليسية ؟
لا بد انك فعلت •• أنا فعلت ذلك • كنت ألتهمها التهاما • ولئن
نسيت أحداثها وأبطالها ، الا أننى تكيفت بها وتطبعت بفلسفتها •

التحقيق ، التحقيق • قد يكون عقب سيجارة ، أو قطعة خيط ،
أو خصلة رفيعة من الشعر الى جوار الجثة هو الطريق الى كشف
السر ، والعثور على القاتل •• لكل شيء لغز •• ولكل حدث
قاتل •• وعليك أن تبحث عن القاتل ، بل وعلى القتلة من
حولك •

صوب سبابته الى الفتى متهما :

— بل وفي أعماقك أيضا أيها القاتل المخدوع •• معذرة •
تماديت معك • ربما ليس من حقى ذلك ، فانتا لم تتعارف جيدا ،
ولكن مادمت قد جئت الى تستنصحنى فخذنى على علاتى ••
ماذا كنت أقول لك ؟ آه ، ابحث عن السر الكامن وراء الظواهر
من حولك • فكل شيء من حولك ، والى ما لا نهاية ظواهر
خداعة • وعليك أن تنحى عن طريقك كل ما هو زيف ، كل ما هو
ثانوى وعرضى ، وأن تضع يدك على الأصلى والجوهرى •
وستجد ان هذه الكثرة الهائلة فى الظواهر ، هذه الكثرة المدوخة
المزلزلة هى خداع للنظر •

صوب سبابته الى الفتى متحديا من جديد :

— وعليك أن تثبت أنظارك بلا خوف ولا وجل على
الجوهرى • والجوهر قليل • هو قليل لأنه لا يتطرق اليه
الزوال •

- استدار • ومد يده الى الرف الخلفى يسحب منه كتابا :
— سأعطيك هذا لتقرأه وستدعو لى بطول البقاء •• خذه •
— ولكنها رواية بوليسية ••
— أجل بوليسية •
— ولكننى جئت من أجل •••

قاطعہ الأستاذ مستطردا :

- ولأنها بوليسية فهى سترشدك الى ما يجب أن تكون
طريقتك فى استجلاء الحقيقة الكامنة فى هذا الوجود • عليك
يا أخى ، أن تبحث عن القاتل ، عن الأصابع المملطخة بالدماء وراء
هذه الجثة الضخمة التى تشغل حيز الوجود هذا كله •• أرى
الحيرة قد زادت فى عينيك •

أجاب الفتى متلعثما ، وقد اختلطت عليه الأمور :

- أجل ، معذرة •• فأنا ••

- ميتافيزيقيا الرواية البوليسية •• هذا هو طريقك فى
الدين والسياسة والاجتماع والأخلاق بل وفى الحب أيضا •

— عنوان الكتاب « جريمة قتل فى وضوح النهار » ؟!

يضحك الأستاذ ، لمعت سنة ذهبية فى مقدمة الصف

العلوي :

— ستقول جئت للحكيم يعيننى ويرشدنى فاذا به يداعبنى •
ولكن • هلك • ان الطريقة التى ينظر بها المخبر الى العالم الذى
يقع تحت طائلة تحرياته انما تنطوى على وجهه نظر الى الوجود:
الشك المعمم أو تعميم الشك • قبل أن تثبت ادانة فرد بعينه من
المجموع الذى يتألف منه حقل تحرياته ، يثبت المحقق نظريته
المتفحصة على أغلب الأشخاص أطول وقت ممكن • وليس بلازم
أن يخيم الشك على مجموعة من الأفراد وتسلط عليهم نظرات
الاتهام ، بافتراض ادانتهم ابتداء •• بل ان هذا الشك يمكن أن
يخيم أيضا على ديكور ، على أشياء ، على غير ذلك •

أخرج الأستاذ من جيبه علبة نحاسية مستديرة • أخذ منها
تتفة من السعوط دسها فى أنفه • عطس مرتين • زلزل المكان ،
وتصاعدت من الكتب الكثيرة على الأرفف غمامة خفيفة من
التراب الناعم •• ثم التفت الى الشاب وسأله :

— قلت لى ما اسمك ؟

أجاب الشاب بتواضع شديد :

— زيد ، ياسيدى • زيد •

— آه ، زيد أو عبيد ، ليس هذا بالمهم •• وليس المهم أيضا
هو كيف تواجه الأشخاص والأشياء نظرة الارتياب ، ولا ما تسفر
عنه نظرة الاتهام الموجهة ، بل ان الجدير بالاعتبار على الأخص

هو أن تلحظ كيف ان كلا ممن توجه اليهم النظرة ، حتى الأبرياء منهم ، يحاول الاختفاء والهرب ، وتفادى تلك النظرة .. ان الرواية البوليسية الجيدة تعلمنا ان العالم كله لديه شيء يريد إخفاءه ، وان كل واحد منا ، حتى لو لم نكن بصدد جريمة ارتكبت مدان ومذنب .

يزداد الزائر الشاب أقداما . ويمد يده لتناول الكتاب :
— سيدى الأستاذ ، لم أكن أتوقع ..

لمعت عينا الأستاذ أشيب الشعر ببريق الانتصار :
— هذه أولى الخطوات الى الحقيقة .. ان تتوقع الأمر جيشا لم تكن تتوقعه . الاثم مستبد بالناس ، والخطأ مستحوذ مسيطر على المصائر ، ويحاول كل أن يخفف من وطأة احساسه الحاد بالذنب الشامل وذلك باتهام الآخرين والتحقيق معهم .. اطرح عن كاهلك البراءة والطمأنينة . قل لراحة الباب وداعا .. وداعا ..

يقلب الفتى النظر فى غلاف الكتاب من الناحيتين :
— كم ثمنه ؟

يلوح الحكيم البدين بيديه نافيا عنه تهمة بيع الكتب كأنه أستاذ جامعى يحقق معه فى هذا الأمر :
— لا .. لا .. مجانا أعطيه لك .
— ولا تكاليف الطبع ؟

— انه هدية •

يَضِغُط على مخارج ألفاظه :

— هدية نافعة •

يضع الفتى الكتاب تحت ابطه بعناية ، ويقول مصافحا
الحكيم :

— شكرا ، شكرا • سأقرأه كلمة كلمة ، وسأعمل بنصيحتك ،
فلأنا جد مكترث بالبحث عن الحقيقة •

يشيعه الحكيم الى الباب قائلاً :

— حذار • كن محققا حتى لا تكون محلا للتحقيق !

يغيب الفتى عن الأنظار •

عندما يصبح الحكيم وحيدا فى صومعته يجيل النظر فى
كتبه العديدة التى تغطى الجدران ، ويتحسس بعضها القريب
منه • ويتسم قائلاً :

— أجل ، مجانا أعطى كتابا أول •• لكن عندما تتأزم
أمورك ، وتتعدد خيوط الحياة حول عنقك ، ستأتى الى طالبا
النجاة • /وعندئذ ستشتري كتبى واحدا تلو الآخر ، بأعلى
الأسعار • أرأيت ؟ الكتاب الأول طعم • فاذا قرأته وسرى فيك
تأثيره فقد تسممت وعرفت سبيلك الى كتبى التى تزحم أرفف

المكتبات ودور الناشرين • • وكل كتاب هو طعم ، للكتاب الذى
يليه • لأفيون • أفيون • كل شىء أفيون •

يخبط كرشه برضاء ويقول :

— وفى النهاية ، كله مكسب والحمد لله • طبعات تلو
طبعات من كتبى • ندوات • مناقشات • مقالات مقرظة •
وجوائز فى البلد تشجيعية • ثم تقديرية • ثم طبعات •
وطبعات • وطبعات •

يقول كمن يتلمس لنفسه الأعذار :

— الاثم مستبد بالناس ، والخطأ مستحوذ على المصائر •
ماذا أفعل ؟ يحاول كل أن يخفف وطأة احساسه بالذنب
الشامل باتهام الآخرين والتحقيق معهم •

يغلق النوافذ ، ويسدل الستائر • ثم يقبع فى كرسيه وقد
شبك أصابعه • يخيم الصمت ويفرق فى تأملاته كعنكبوت نسج
من حوله الخيوط ، وقبع فى الداخل كاتما أنفاسه بانتظار فراشة
أو ذبابة أو حتى بعوضة •

يدق جرس الباب بعد هنيهة • يقول الأستاذ الحكيم بصوت
غير مكترث وكما لو كان وافدا من أعماق السنين :

— أدخل •

ويدخل شاب جديد يبدأ الحديث الذى دار من قبل مع الشاب السابق بينما تبحث أصابع الأستاذ على الرفوف عن نسخة من رواية بوليسية أخرى •

٤ - فى الطريق مع المدير

* قال له المدير وهو ينزل معه السلم •

— دعوتك يا زيد ، لأننى أريدك أن تحضر معى هذا المساء « الرقصات الجنائزية » ستعينك جدا على تكوين رأى سليم فى موضوع الملف الذى أحلته عليك •

أصبح زيد يتمنى فى بعض اللحظات ألا يفرغ من بحث هذا الملف أبدا • ان صورته تظهر على صفحات الجرائد ، ويحظى بمعاملة خاصة من قبل المدير الجديد ، فها هو يتأبط ذراعه ويتبسط معه فى الحديث فى طريقهما الى سيارته • وها هو بواب العمارة يقوم له عندما يراه داخلا أو خارجا ، وهو رجل مهيب الطلعة مثل الأباطرة ويشيعه الى الطريق بالتحيات والدعوات الصالحات •

وكثيرا ما يذكره موضوع ذلك الملف بقصة صديقه المحامى العجوز الذى حنكه سوق القضايا وابنه الشاب حديث التخرج •

عندما عهد اليه أبوه بالحضور فى قضية ليطلب فيها التأجيل ،
واذا بالأبن يعود آخر النهار الى أبيه هاشا باشا ويقول له فخورا :
— أنجزت القضية على ما يرام • وحصلت على حكم فيها
لصالحنا •

ولدهشة المحامى الشاب أغتم الأب وقال له مؤنبا :

— ومن قال لك ان تطلب الحكم فيها ، يافتى ! فى كل
تأجيل نقبض أتعابا ثم أتعاب • وها أنت تضع على المكتب بقلة
خبرتك الدجاجة التى كانت تبيض لنا فى كل مرة بيضة من
ذهب • خيبة الله عليك !

وها هو زيد يذهب مع فخامة المدير الى حفل راقص بسبب
الملف الأزرق • أليس اذن دجاجة تبيض له كل يوم بيضة من
ذهب ؟ ولكن كان ثمة دافع من الاخلاص يحثه على انجاز
الموضوع — مثل كل الموضوعات التى أحيلت عليه — بأسرع
وقت ممكن ، حتى ان قالوا له فى نهاية الأمر خيبة الله عليك •
فلم يكن للسعى الى بلوغ الحقيقة من معنى فى نظره سوى عدم
الرغبة فى الخداع ، ولم يكن يتطلع الى لحظة الفراغ من العمل
الا على أنها لحظة احساس عميق بالفيض والعطاء •

قال له المدير متأففا :

— انه حفل يقيمه بعض رجال الأعمال • كم يثير تقزى

هؤلاء الناس بأيديهم المكتنزة الحمراء ! ما من شيء يحز في النفس
قدر الخضوع لأناس غير معروف في الأصل تافهين ، فهذا يثير الايمان
بأن الحظ والمصادفة وحدهما هما اللذان رفعا الواحد فوق
الآخر ..

التفت المدير الى زيد مستدركا :

— لكنهم يمولون مكتبنا الى حد بعيد ، كما تعلم .

فتح السائق باب السيارة • دخل المدير اليها وألقى بجسمه
على الأريكة الخلفية اللينة • هم زيد أن يدخل في اثره فقد فهم
أن حديث المدير له لا زال ممتدا • صده المدير بحركة من يده
الرخصة اللينة ، وقال له :

— لا يمكن على أى حال أن تقوم حضارة رفيعة ألا بقدر
من التمايز بين الطبقات •

— ولكنك كنت تقول ..

قاطعته بلهجة صارمة :

— مكانك الدراجة • اركبها وسر بمحاذاة • سنكمل
الحديث في الطريق •

انطلقت سيارة المدير تنفث دخانها الأسود وراءها • لحق
بها زيد والتفت الى المدير الذي أطل اليه من النافذة • قال له :

— العام القادم تستحق دراجة بخارية بدلا من هذه •

أحس زيد بأنه انما يطير بدراجته فى الهواء ، فقد كان ذلك تلميحا لبقا الى الترقية •

واصل المدير حديثه قائلا :

— سترى كيف تتيح الثروة ، مهما كانت وسائل اكتسابها ، الفرصة لازدهار أكثر الفنون رفعة وعراقة • تفهم ماذا أقصد ، الرقص بطبيعة الحال • فهى تمكن من جلب أفضل المدربين ، وانتقاء أجمل النساء •

قفزت خواطر كثيرة الى رأس زيد • لم يكن أحد ليفهم ان الفن ليس فى جوهره مجرد وسيلة ترفيه وامتناع رخيص ، بل هو وسيلة أصولية يحقق بها الانسان سعيه لادراك معنى الحياة والوجود • ان الملحوظ فى الفن على الدوام انه شىء داخل اطار المجتمع وخارجه ، مرهون به ومتمرد عليه ، يعبر عنه ويرفضه فى الوقت ذاته • والذي تحتاجه فكرة الصالح المشترك حقا هو نظرية للفن كتعبير عن نوع من الادراك مختلف عن العقيدة الاجتماعية السائدة فى وقت معين ، ومتجاوز للحدود الزمنية والمكانية الضيقة لتدفع المجتمع وقيمه على الدوام الى مستقبل أفضل تلقى فيه مقومات الصالح المشترك تصورا أكثر اقترابا من المستويات العليا فى الاطار الانسانى •

التفت زيد ، وقال للمدير :

— لكن ..

وهم أن يوضح له أن الفن فى مفهومه الصحيح عملية خلق وتجديد مستمرين للمجتمع وقيمه • عاد زيد يكرر ذات الكلمة « ولكن .. » محاولا أن يفتح بها كلاما عن أن النظم والحكومات ليست سوى تحويل لرؤى الفلاسفة والفنانين التقدمية الى حقائق ملموسة • لكنه عاد سريعا وسكت ، فقد لكزته فى ظهره عبارة قديمة تلقاها ذات يوم فى خطاب من صديق • « كل عيش واسكت » هذا ما قاله له الصديق الحريص • كان زيد فى تلك الآونة يحضر مقالات مختصرة عن « مفهوم التقدم » لينشرها فى الجرائد اليومية ، ولكنه طواها ونكص ، كما هو شأنه كلما هم أن يقدم على عمل جاد فيفضل عليه أحد الخلاء بالنصح والارشاد •

لم ينبس زيد بأى من هذه الخواطر ، فلم يكن يريد أن يلم به ما أصاب وكيل الادارة من قبل ، لكنه أخذ يحكى للمدير قصة أحد الشبان من أصدقائه أراد ذات مرة أن يكسر التقاليد فاختار الطريق الصعب • أراد أن يبكى الناس ، ولم يرقص • فهب فى وجهه ناقد أصلع كالح أحمر الشارب • وقال له : اذا كان

هذا هو الخروج على التقاليد فمرحبا بالتقاليد • • وهتفت
الجماهير من خلفه «مرحبا بالتقاليد» وصوبت الأصابع تشير اليه
صائحة : تشاؤمى ! تشاؤمى !

أوما المدير الى السائق أن يوقف السيارة • كادت دراجة
زيد أن يختل توازنها وتصطدم بالرصيف • أطل المدير من النافذة،
وسأل بلهفة :

— ألم يفهم أحد هذا الشاب ؟

هز زيد رأسه بالنفى ، وأردف يقول :

— كاد الشاب المسكين أن يصيبه أذى كبير •

وضع زيد رجله على البدالة وهم بالمسير •

سأله المدير •

— وكيف نجا ؟

— تزوج ابنة أحد باعة الكباب ، وطلق الكتابة الى غير

رجعة ، مكتفيا بأرباحه من تجارة «المأكولات السريعة» للمتددين

فى أيام الزيارات على باب السجن الكبير •

تحركت سيارة المدير • خيم الصمت برهة طويلة •

٥ - الصفحة الأخيرة

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

قال الأب وهو يخطو الى باب الغرفة :

- فى الحياة أكثر بكثير مما تعلمته من كتبك ، أيها الشاب •
- ان طائر الحياة يجر جر فى الطين ذيله الطويل الأنيق •
- فى الغروب يا أبى يتحطم الفجر •
- صوب العجوز نظرة من عينين زجاجيتين لا تطرفان وقال :
- من أخطر المهن فى عصرنا ، انقاذ السفن الغارقة ••
- طابت ليلتك ، يا زيد •
- دلف الى غرفته بخطوات قصيرة بطيئة واثقة • ولم يلتفت الى •

٦ - السعادة الكبرى

* فى الصباح ، كنت أتصفح جريدتى • وقع بصرى فى
عمود « حظك اليوم » على ما جعل قلبى يدق فرحا • قرأت ،

وأنا من مواليد برج الحمل : « اليوم تلتقى بسعادة كبرى ،
ويفتح لك الحظ ذراعيه » ا

قفزت من سريري جذلا ، وأخرجت حلتى الجديدة وقميصا
نظيفا وربطة عنق زاهية ، وتأنقت في ارتداء ملابسى • ولم يكن
ذلك لأننى كنت سأذهب الى مكان آخر غير مكتبى ، ولكن ألم
أكن على موعد مع السعادة ؟! ومن يدري ، فقد تكون تلك
السعادة عادة حسناء • لذلك كان لا بد أن أقابل تلك الحسناء
• • أعنى تلك السعادة • • بالمظهر اللائق بها •

خرجت أخطو في طريقى الى مقر عملى ، أحسست بنفسى
خفيفا كالريشة وكان ذلك الكرش المحترم الذى أصبح يتقدمنى
لم يكن كرشى أنا ، أو اذا كان كرشى فكأن شخصا آخر يحمله
عنى اليوم • سرت أتلفت يمينا ويسارا • أتطلع الى نوافذ البيوت
وشرفاتها ، والأمل يلمع فى عيني • كنت أتمهل قليلا عند كل
منحنى فقد تكون السعادة فى انتظارى « على الناصية » •

لم أعد التفت الى نصائح • لم أعد أطمع فى عمل صالح ،
فأنا « شبيك لبيك • أيها الحظ ، أنا عبدك وبين يديك » أيها
الحظ الرائع ، ما أحوجنا الى مثاليات وإيجابيات ، مادامت
الغيبات أقوى من كل الأقوياء ، ولها إلينا إيماءات وإشارات ،
على ناصح مثلى أن بظن إليها فحسب ، فيحصل على كل الحلول ؟

آلم يصدق معى الحظ بدل المرة مرات ؟ وحتى اذا لم يصب أحيانا
فالذنب فينا نحن لقصور ملكاتنا عن الفهم ، أما هو فكلمته
لا تنزل الأرض !

وصلت متأخرا بعض الشيء الى منسبى رغم صرامة رئيسى
الجديد ولسانه القارص • الا أنه تغاضى عن تأخرى لشدة انشغاله
بانجاز بعض الأعمال المستعجلة • لكننى لم أعز ذلك الا الى أن
الحظ فى صفى اليوم •

جلست الى أوراقى وملفاتى أتصفحها وأقلبها شارد العصف
أفكر فيما عليها تكون تلك السعادة الكبرى التى سألتقى بها ،
وما هو ذلك الحظ الذى سيفتح لى ذراعيه : هل هى ترقية • •
وقد مضى على فى درجتى عشر سنوات ؟ أم هى علاوة تزيد
مرتبى بضعة جنيهات ؟ أم هى مكافأة مالية أستطيع أن أسدد
بها ديونى ؟ وسرح بى الخيال • • فتصورت نفسى فى مكان
رئيسى أمر وأنهى ، وأصبح وألقى بالأوراق فى وجهه مرؤوسى
مرغيا مزيدا كما يفعل •

واذا بى فى حركة لا شعورية أمسك بالملف الذى أمامى وألقى
به على مكتبى مقلدا رئيسى • ولكن يبدو أن عودتى الى عالم
الواقع كانت قد آن أوانها • فقد شعرت بأعصابى تهتز عندما
ارتطم الملف الذى ألقيت بزجاجة الحبر فانكفأت وانسكب
مدادها ملطخا الأوراق بلونه الأحمر القانى • ثم سالت جداول

رفيعة منه على جانب المكتب وأخذت تتساقط قطرة قطرة على
السجادة التي تغطي أرض الغرفة • وقام الزملاء من على مكاتبهم
صائحين • « حاسب ، يا زيد ! الحبر ! حاسب ! .. »

وكما غرقت الأوراق في لجة المداد غرقت أنا في لجة من
الارتباك والخجل • وفتح الرئيس باب حجراته الزجاجية مستفسرا
عما حدث • وما أن رأى مكتبي الذي كان كقربة اكتسحتها مياه
الفيضان حتى صاح في بصوته الهادر : « كده ، كده ، ياسيد •
أتلقت مستندات المشروع .. طيب والله .. والله لا خصمن
يومين من ماهيتك حتى تنتبه الى شغلك في المرة القادمة ! »

وجاء الفراش ليجفف المداد ، ويرفع الأوراق ، وينظف
السجادة •

ولكنني سرعان ما استرددت هدوئي وعلت الابتسامة
شفتي • ان السعادة الكبرى آتية ولا شك عن قريب جدا • •
بعد لحظة ، أو بعد ساعة أو بعد بضع ساعات على الأكثر •
وهذه حادثة صغيرة لا يجدر أن تعكر صفائي وتثنييني عن ترقب
السعادة التي وعدني بها الحظ اليوم •

وفي طريق عودتي الى البيت بعد انتهاء العمل أخذت أخطو
كالطاووس ، وقد تراقصت أمام عيني العبارة الفاصلة في حياتي ،
« اليوم تلتقي بسعادة كبرى ، ويفتح لك الحظ ذراعيه » وفي

غمرة شرودى لم أتنبه الى صيحات المارة واشاراتهم الى :
« حاسب ! حاسب ! » ويبدو ان الوقت كان قد حان لكى أعود
الى عالم الواقع مرة أخرى •

فقد شاهد المارة سيارة تستدير عند المنحنى وتتجه نحوى
بسرعة • وفهموا أننى لم انتبه لها حتى أتفادها • بوغت حقاً
بالسيارة المخيفة وقد اقتربت جداً وزمجرت فراملها على بعد أقل
من خطوة منى • قفزت متراجعا الى الرصيف ، مجفلاً كقرد يطارده
ذئب • الا أن الذئب •• أعنى السيارة •• كانت قد زالت منى
وصدمتنى فى جانبى الأيسر •• وسقطت على الأرض متأوها •
وتجمع الناس حولى •

ولكننى أصبحت أومن بالخط • وكل شىء مقدر ومكتوب •
ولم لا يكون القدر قد سير الأمور على هذا النحو البارع حتى
تحملنى عربة الاسعاف الى المستشفى لألتقى بالسعادة الكبرى
هناك ١٢

التعليمات

* تعالى من الشارع فجأة صياح وصفير • جلجل على
الأسفلت وقع أقدام مهرولة • ما الأمر ؟ أحفل زفاف ؟ أجنزة
ميت ؟ أم حريق شب فى الأزقة ؟

اندفع الجميع نحو النوافذ • فتحت الأبواب ، واطلت
الرؤوس وسرت فى كل مكان همسات الدهشة • ولما رأى
« أعضاء المكتب الفنى » المدير محمولا على محفة • • ومن ورائه
الوكيل ثم كبار الموظفين حسب ترتيب اقدمياتهم ، تدافعوا الى
سلم الخدم يبعون الخروج ليلحقوا بالمدير ، فيكونوا فى
معيته ، وتلتقط لهم الصور وتنشر فى اليوم التالى بالجرائد •
وقد يطلب المدير احدهم فاذا وجده غائبا تعرض لأقصى العقاب •

اتجه الركب عدوا الى الميدان الكبير ، ووقفوا يحيطون
بالمدير الذى قفز الى الأرض فى خفة ابن العشرين بفضل تعاطيه

مقوى الحديد • وجرى الى السور الكبير المحوط بالميدان
الكبير ، تسلقه فى رشاقة جدى جبلى ، واطل من حافته الى
الداخل •

خيم الصمت والتوتر برهة ، فتهامس الحاضرون : ماذا تراه
مبصرا ؟ ماذا تراه مبصرا ؟!

وقف موظفوا المكتب جامدين يضربون فى اودية الحدس
والتخمين ، وليثوا فى أماكنهم ينتظرون علامات أو بوادر من
المدير ، فهم رهن اشارته فى كل وقت بالليل او بالنهار •
تعالى من داخل السور دخان اسود كثيف ، وصرخات
استغاثة وصهيل جياذ •

وصاح الوكيل مناديا المدير مستفسرا :

— ما الذى عكر صفو صباحنا يا فخامة المدير وكدر سكينته؟
ارجو سرعة التحقيق •

وسأل مساعد الوكيل :

— أترى المدينة ذاهبة طعمة للنيران قبل ان يتنبه اليها
الناس ؟

فرد عليهما المدير من حلق :

— لاشئ .. لاشئ .. شئ فى طريقه المرسوم يجرى •

ومن كوة فى السور الكبير اندفعت عربة مغطاة ذات
عجلات خشنة كبيرة ، يقودها فلاح اعجف يهوى بسوطه على ظهر
ثور أسود عله يسرع فى المسير • وفى داخل العربة كانت امرأة
فلاحة عجوز محجبة •

اجفلت الدابة فانحسر الوشاح عن رأس الفلاحة ، عندما
همت العربة باجتياز النهر الأصفر •

صاح احد الواقفين :

— الامبراطورة ••• !

علق احد المارة :

— انها ميتة !

— كلنا سنموت !

— انها تتعذب !

— وعذبت الكثيرين •

— العالم مكان للعقاب •

— قامرت وخسرت •

— وخسر بخسارتها الكثيرون •

انطلقت العربة باقصى سرعتها عندما الهب السوط ظهر

الثور • واستدارت عند المنعطف ، وغابت عن العيان ، وقد اثارت
من خلفها الغبار •

نزل المدير • نفض ثيابه •

اخرج زجاجة الكولونيا من حقيبة صغيرة • بلل يديه
ووجنتيه المستديرتين • فاح عيبرها • انتهز موظفو المكتب
الفرصة ، فملأوا رئاتهم بالهواء المعطر •

استدعى المدير الوكيل • اتحنى به جانبا • اخرج ورقا
وقلما ، واملى عليه المدير صيغة تعليمات جديدة سميت فيما بعد
«بلائحة تجربة السور»

بعد الديباجة المعروفة املى عليه المدير قائلا :

— المادة الأولى : السيادة للفضيلة •

توقف الوكيل عن الكتابة وسأل :

— معذرة ، ياسيادة المدير اهذه «نظرية الحق الالهى ؟»

اجاب المدير بصرامة :

— لاتقاطعنى • انها أكثر معقولة منها •

وأردف يملأ التعليمات :

— النظام الاجتماعى جزء من النظام الطبعى ، وامتداد

له •

لم يقو الوكيل على مغالبة فضوله وشغفه باظهار البراعة
والمعرفة :

— مرة أخرى ، ياسيدى .. ومنذا الذى يتحمل غوائل
الطبيعة واعاديتها ؟ أعنى مسئولية كل تلك الفيضانات والعواصف
والبراكين ؟

نهض القط الراقد على حائط الحديقة المجاورة • مط جسمه
الرمادى • ونشر مخالبه • فغرفاه حتى ظهرت انيابه البيضاء
ولسانه الوردى • وانخرط فى المواء • ثم هبط الى الأرض ،
واختفى بين أقدام الواقفين •

صاح المدير منفعلا :

— قلت لك لا تقاطعنى • انت تقصد اخرجى امام الجمهور ؟
انتزع الورق والقلم من الوكيل ، ودفع بها الى يدى مساعد
الوكيل وقال بلهجة آمرة :

— اكتب • سيضرب المثل الأعلى فى الأخلاق لكل الناس •
وسيحمل ذلك الجميع على الطاعة والولاء • افراد الاسرة الواحدة
والحى الواحد والمدينة الواحدة مسئولون كل منهم عن الآخر •
كل جار مسئول عن جيرانه • اذا ارتكب اخوك ضررا فانت الذى
تدفع • ومن ثم حذار ان يغيب نظرك عن تصرفاته • والنتيجة ..

على كل ان يراقب الكل ، وعلى الكل ان يراقبوا بعضهم بعضا •
الحلول القديمة صالحة على الدوام ، متى أحسنتم تفسيرها •

واصل المدير كلامه متلفتا الى الوكيل بنظرة ذات مغزى :
— قال كوتفوشويس ، يا عزيزى : عندما يكون سلوك
المدير قويا ، تكون ادارته فعالة بلا أوامر •

التفت المدير الى الجموع ، وقال :

— لاتكونوا كثيرى الطموح حتى لاتخجلوا من ضعف
امكاناتكم لتحقيقها • غيروا جلودكم من وقت لآخر مثل الثعابين ،
ولا تخشوا الأيام •

ركب المدير النقالة • مضى الحجاب الأربعة يعدون بها ،
والمدير يوزع التحيات يمنا ويسرة كأنه «بوذا الرحيم» وعندما
رأى زيدا يقف محشورا بين الجموع اشار اليه ان يأتى •

خرج زيد من الصف ، وذهب الى المدير وظل يعدو الى
جوار النقالة وهو يستمع الى توجيهات المدير الصارمة له :

— اريدك ان تمر على مكتبى هذا المساء • ثمة تطورات
جديدة •

أوماً زيد رأسه موافقا •

مضى المدير يقول بصوت خفيض ، كما لو كان اختصه هو
بهذا الحديث :

— عليك أن تحذر البحارة • انا أزودك بالضوء مثل
الشمس • انت ابني وصفي • عندما تجوع اطعمك • وعندما
تخطيء اقومك • وعندما تأتي الى آخذك بين ذراعي • ليس ثمة
ما تحتاج اليه في الواقع • انت فلاح مثلي ، ولست من مخزني
التحف والعجائب •

التقط أحد الصحفيين صورة للمدير وزيد •

أثار ذلك الحسد في قلوب الآخرين •

تمنى زيد ألا يبدو في هذه الصور التذكارية لاهثا •

قفز ديك بدين أحمر العرف والذيل الى سطح قريب • أطل
على الشارع المكتظ متوجسا • ثم نفص جناحيه في خيلاء ،
وصاح كان الفجر قد لاح عند الأفق •

قُبَيْل الانصراف

* ضحكت رجاء ، وقالت بصوتها ذى الرنين القوى والنغم الموزون :

— كان يسمح للناس فى قرية جدتى أن يتلاقوا ، ويجتمعوا أينما حلا لهم لكن منذ اللحظة التى تتوثق فيها أواصر الحب بين الناس وجب أن يتدخل العمدة أو شيخ الخفر للتفريق بينهم حتى لا تقع الكارثة . وكثيرا ما قدم المحبون الى المحاكم بتهمة الاجتماع غير المشروع . وكان الناس يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفة القواعد حتى صار الأمر عرفا ، والعرف ملزم كالقانون .

تغير صوت رجاء ، فأصبح متكاثفا مثل الدخان ، ومضت فى حديثها :

— تقول أُمى ان البنت الآن تدور « على حل شعرها » لكن أيامها كان الأطفال فى طفولتهم لا يعرفون معنى الطفولة .

وسرحت بصرها تستذكر جدتها .. كانت تجلس على الأريكة ذات الوسائد البيضاء فى غرفتها خافتة الضوء المعبقة برائحة البخور والمستكة . كان يحلو لها الثرثرة وهى ترشف أقداح القهوة بالحبهان . كانت تطحن بنفسها البن ، وتضع الكنكة على موقد السبرتو الذى كان يلزم المنضدة الصغيرة بجوار سريرها .. ذكريات قديمة .. يا للحدة المسكينة . كلما تقدم بها العمر وضعف بصرها تسرح بخيالها مع الأيام القديمة . ولكنها أيضا كانت تضيف من عندياتها فى بعض الأحيان تعليقات وزخارف ومبالغات تقصد بها جذب انتباه السامعين اليها وشدهم الى أحاديثها . وهذا شأن الأجيال التى قاربت حافة الاندثار ، تتشبث بالأجيال اللاحقة ، وتلوح لهم أحيانا بالمغريات ، وأحيانا بما يخيف حتى تجذب أنظارهم وتسمرها عليها .

قدمت القهوة التركى الى ضيوفها ، وقالت :

— حكايات قديمة ، يا أولاد . كان السادة الأشراف يضربون الأجداد . وكان فى وسع أصغر الأغوات أن يحطم أكبر الرؤوس . وكان الأجداد يضربون الآباء والاباء يضربون الأحفاد ، وإذا بكى المضروب وملا الدنيا عويلا قيل هذا أفضل له ، حتى يعرف ان الدنيا ليست كلها له . وكلما عرف ذلك مبكرا كان ذلك خيرا له . هزت رجاء رأسها ، وتمتمت وهى ترى جدتها من بعيد ترشف قهوتها ببطء :

— هذه كانت القاعدة التى قام عليها الميراث الاجتماعى •

وكانت الجدة « وديعة الله » تتلذذ من سرد ذكرياتها القديمة :

— كان أول ما يفكر فيه الأولاد عندما يصحون من النوم كل صباح هل يضربهم الآباء اليوم ؟ فإذا ما ضربوا يوما ضربا قليلا قبلوا أيديهم ظهرا وقلبا، ورفعوا عيونهم الى السماء قائلين : حمدا ، ثم حمدا • قليل زائل ، خير من كثيرا دائم ! تصوروا ، كانوا يضربونهم حتى لتعلم الأناشيد الدينية ؟ !

سقط قلم زيد على الأرض فأحدث جلبة قطعت حبل التفكير عند رجاء ، وأعادها الى واقعها • ما اسعد أن نعود الى الواقع • هو كل ما هو كائن وكل ما كان ، وما سيكون •

عادت رجاء تقول بعد قليل :

— كانت القاعدة ان من الخير للانسان أن يكون جلادا من أن يكون ضحية يعلق فى عنقه حبل المشنقة ، أو تمد رقبته على النطع المخضب بالدماء ، ويطاح بها •

سألها زيد وهو يراجع صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة :

— ألم يفكر أحد فى مخرج ؟

التفتت اليه رجاء دهشة :

— يالك من ضفدعة بلهاء ! بالطبع كان لابد من البحث عن مخرج •

انضم اليها مرزوق قائلاً :

— كما هو الحال على الدوام • الجميع يبحثون عن أبواب للخروج ، ولو كانت أبواباً خاطئة ، أليس كذلك ؟

اخرج من جيب سرواله الخلفى مطواة وأخذ يبرى بها قلمه •
لمحت الزميلة نجية — وكانت حاملاً — عامل البوفيه يمر فى
الردهة • نادى بصوت عال وطلبت منه :

— سندويتش عجة ، يا عويس • وكتر السلطة ، وحياة
عينيك •

لم تكن تستطيع الافطار فى البيت فهى تسكن بعيداً ،
وزحام المواصلات يختم عليها النزول مبكراً ، فكان الجوع
يدغدغ أمعاءها كلما زحفت ساعات النهار •

تثاءب الزميل سعداوى • ظهر اللسان الأحمر • انخفض
الفك الأسفل وانخفض حتى بدا الحلق والاضراس السوداء
كالطين • قال :

— عندى فكرة •• نعمل جمعية •• كل واحد يدفع ••
لكن رجاء كانت تواقفة الى أن تمضى فى ثرثرتها • أنها

رياضة يومية ممتعة • وتلهف الباقون الى سماع القصة • وإن
الحديث عن الماضى يدخل على النفوس سكينه من نوع خاص •

تعلقت العيون بشفتى رجاء :

— كان أمام الجيل الجديد أن يسلك طريق آباءه فينقلب الى
طغمة من الاجلاف السكارى •• أو أن يكافح من أجل العلم
والتقدم •

التقدم ؟ التقدم !!

صدمت هذه الكلمة اذن زيد بشدة • رفع رأسه عن الأوراق
التي كان يراجعها ، وزاغ بصره بعيدا •

ندت من مرزوق صرخة قصيرة ، فقد زلق النصل وجرح
أصبعه •

أردفت رجاء ضاحكة :

— لكن لم يكن أحد يشعر بجهله وقيمه الضئيلة أمام الله ،
وأمام الفكر ، وأمام الجمال ، وأمام الطبيعة • أما أمام الناس
فلم يكن أحد يحافظ على كرامته الذاتية •

الكرامة الذاتية !

خفق قلب زيد عند سماعه ذلك • أحس انه مقبل على كشف

جديد • الايمان بكرامة الانسان • هذه فكرة • ثم الايمان
بالتقدم • هذا رصيد ضخيم •

ترك كل أوراقه • أغلق الدرج الأوسط بالمفتاح • واسند
ذراعيه الى المكتب وقد تأهب للأصغاء باهتمام لحديث رجاء •

دخل الفراش ذو الأزرار النحاسية • لم يشعر به أحد ، فهو
متلصص مثل الثعبان • وفريسته عادة أكبر منه • وقف الى جوار
زيد وانحنى يهمس فى اذنه ان المدير يريد • تلكأ حتى يلتقط
أكثر ما يمكن أن يلتقطه من كلام رجاء التى لم تتبه الى الفراش
رشيق الحركة ضئيل الجسم • أصبح حديثها مشيراً ، لكن الفراش
عاد يستعجله وقد صوب اليه نظرات باردة من عينين رماديتين لا
تطرفان • قال له بصوت مبجوح :

— المدير عنده ضيوف • وهو على أهبة الانصراف •

الحديث يمضى لكن المدير يشع كالشيطان • مهيب شرس
الطباع • • الجميع يعجبون به بقدر ما يخشونه • ومنذ أن شغل
منصبه ، وهو يثير فى النفوس رعدة خفية • وقد عرف عنه فى
دوائر المديرين انه مراوغ من الطراز الأول ، متأهب للانقضاض
على الدوام • • كان هذا هو الدافع الوحيد لزيد على عدم التخلف •
مضى خلف الفراش وابتلعتهما الردهة المعتمدة •

عندما عاد كان السمرقد انقضى • انصرفت رجاء وبقية

الزملاء • هذا شأن المدير معه ، عندما يكاد يصل الى أن يضع
يده على بداية جادة • وغدا ؟ لكل يوم كلام جديد • ومن يدري
ماذا يدخره الغد من أحاديث سخيفة كالمعتاد ؟

كان اليوم شيئاً آخر • ولكن فجأة اهتز عصب فى صدر زيد
هل حدث اليوم حقاً ان قالت رجاء هذا الكلام ؟ وهل يحدث أن
يقول أحد هذا الكلام على الاطلاق ؟ وفى غرفة المكتب هذه .
بجدرانها الكثيرة التى تساقط طلاؤها ؟ • هل اجتمع اليوم
هؤلاء • • • وذكرت : الكرامة • • والاجداد • • والتقدم • • والاحفاد
الذين يضربون الآباء ؟

نزل زيد درجات المبنى ذى الطوابق الستة والثلاثين •
سيصرع الى غرفته ويغلق النوافذ • • الجميع يفعلون ذلك • بالليل
توصد البيوت أبوابها ، وتسدل الستائر ، وتطلق الكلاب فى
الشوارع تنبح وتعض ، وتطارد اللصوص والقطط •

يوم أن قُتل عنتر

* أمام مائتين من آكلى الفول السودانى والملائة ، فى صباح مشمس جميل ، هاجم عنتر حارسه ، وأخذ يمزق جسده .

لم يحتمل البعض ، اصابوا بالاغماء ، أما أولئك الذين ما عادوا يثقون بأن شيئاً يمكن أن يحدث ، فقالوا « هذا فيلم من الموجة الجديدة » .

مضى بمخالبه يمزق لحمه .

دوت الصفارات ، وجرى الحراس فى الممرات . تعالت الصيحات والاختارات وصوبت الاشارات نحو القفص الملطخ بالدماء .. نحو الضحية ..

أسرع رجال النجدة ، وهم يجيئون عادة متأخرين .. شهروا السلاح . أطلقوا الرصاص ، من خلال القضبان ، على الأسد

المفترس • خمدت مخالفه • بردت أنيابه • سقط بجسوار
حارسه •

بعد تريث ، فتحت الاقفال • اقتحم ذوو البنادق والهروات
القفص ، وانهاكوا على جثة الوحش ضربا •

من الأقفاص المجاورة ، تعالى الزئير ، وأطلقت الطيور
الجارحة ، فى ارجاء الحديقة ، صرخات لاهثة • ربما شمت الدماء
وتتانة لحم الانسان • • واحد من السادة السجنائين مات •

انكب الضابط والبيطرى والطبيب على الحارس الذى يلفظ
الانفاس • قال بابتسامة غافرة :

— انى لا ألومه • • هذا الحبيب • • انه تعذب • • انا تقسى
كنت أضرب زوجتى وعيالى ، ساعة الألم • • لا تلوموه هو • •
وقال أحد المتفرجين خارج القفص معلقا :

— يضربون عنتر الحبيس ، وألف عنتر يصول ويجول
سائبا •

وقال نائب المدير :

— سنسلخ جلده •

وقال المدير :

— بل سنحنطه ونودعه المتحف .. فى الجناح الجديد الذى
سيفتتحه السيد الوزير .. فمنح علاوة أو مكافأة أو ربما ترقية.
ثم التفت الى كبير صرافى الحديقة ، وقال بلمهة حازمة :
— سيتضاعف عدد الزوار غدا .. بعد حادث هذا الأسد
المفترس .. يمكنكم أن تزيدوا الطوابع فى كل شباك ..
وحاذروا من المتسللين •

فى المشى المؤدى الى بيت الزواحف ، قال أحد المتفرجين .
وهو يمشى الهوينا ، ويقضم كعكة السميطة :
— سنقرأ غدا أخبار ساخنة •

أجابه متفرج آخر ممن يؤمنون بأن لا شىء يحرك المياه
فى البرك الراكدة :

— الصحفيون بشر •

— ولهذا سيثيرهم هذا الحدث ، ويبيعون من صحفهم آلاف
النسخ •

نظر اليه المتسكع الآخر ، وقد عقد أصابعه وراء ظهره :

— هذا اذا لم تقدم الادارة ريش الطاووس وبيض النعام
هدايا ..

تلفت نحوه ، وأردف قائلاً :

— هذه الأشياء تبهر ، كما تعرف ، وهي قادرة على الاسكات غالباً .

قال الأول ، غير مقتنع :

— ماذا باستطاعتهم أن يقولوا ، والحادث على كل لسان؟

ركل الآخر حصاه صادفتها قدمه فى المشى . وقال :

— الأمر سهل ، والمادة تذل الصعاب .

— أراهنك لن يستطيعوا أن يقولوا شيئاً .. الأسد افترس حارسه .

هز الآخر رأسه ، قائلاً :

— سيقولون — مثلاً — الحارس مات بالصدمة العصبية عندما فوجئ بالأسد يواجهه والقفص مغلق عليهما .

— ماذا تقول ؟! يحملون المسؤولية للحارس ؟!

— وكاملة .. هذا اذا لم يقولوا ان الحارس هو الذى بدأ الأسد بالعدوان .. وأن هذا الأسد المسكين كان مصاباً بالشلل منذ أمد .

قادهما تسكعهما فى الممرات المشمسة الى مبنى لا تحوطه

القضبان ، بل تنفتح الشبايك فى حوائطه التى كستها النباتات المتسلقة ذات الزهر البنفسجى • كان ثمة شباك عال عن يمينهما مفتوحا على مصراعيه • لم يريا من بالداخل ، ولكن الداخل سكب الى آذانهما صوتا غليظا يقول :

— الحادث يرجع الى أحد احتمالين •• الأول ، ان يكون الحارس قد دخل دون أن يغلق الباب الفاصل بين القفصين الأمامى والخلفى ، فأتاح الفرصة للأسد أن يهجم عليه •• والثانى أن يكون الحارس قد طرد الأسد الى القفص الأمامى المعد للعرض ، وقبل أن يكون قد استدار ليغلق الباب عاد الأسد الى مكان المبيت دون أن يشعر الحارس الغافل ، ففوجئ بوجود الأسد معه فى الحجرة الداخلية لا يفصل بينهما أكثر من متر واحد • وما ان وجد الحارس نفسه وجها لوجه أمام الأسد بين قضبان محكمة الاغلاق صرخ صرخة واحدة أثارت الأسد • أجل ، يجب أن تبرزوا هذا على صفحاتكم •• صرخ صرخة واحدة أثارت الأسد فدفعه ، فوقع على الأرض ، وتركه •

تعالى صوت رفيع متكسر :

— تصوير بارع هذا يا سيادة المدير •• تصوير بارع ••
لافض فوك ، يا سيدى •

نظر المتفرجان الى بعضهما بعضا صامتين •

مضى الصوت المتسلط :

— ابرزوا هذه الواقعة ، يا حضرات .. ابرزوها على صفحاتكم جيدا ..

عاد الصوت المتكسر الرفيع :

— حبذا لو أخذتم صورة لسيادة المدير ، وهو يضع قدمه على رأس الأسد . سيكون لهذا وقع حسن فى قلوب القراء .. وسيأتون ليتفرجوا على سيادة المدير بدلا من الأسد القتل .

وفد صوت المدير منتهزا :

— دعك من هذه التعليقات ، يا سيادة الوكيل . . . ولنتنبه كلية الى ضيوفنا الصحفيين .. نحن على استعداد لتزويدهم بكل المعلومات التى تلزمهم فى مثل هذه المناسبة .. واجبنا يحتم علينا ذلك .. وعليهم أيضا .. سيحتاجون الى تقرير مفتش الصحة والطبيب الشرعى .. خذ قلما يا سيادة الوكيل ، واكتب ما سأمليه عليك . وليوقع مفتش الصحة على ما سأقول .

— لحظة واحدة ، يا سيادة المدير .. سأكتب هذا بالقلم الكويبا ..

— اكتب ..

قبع المتفرجان فى مكانهما وارهفا السمع :

— سيجرى التقرير بالآتى .. حدثت الوفاة نتيجة صدمة عصبية وهبوط فى القلب اصابا الحارس حينما وجد نفسه وجها لوجه أمام الأسد والباب مغلق عليهما ..

— وعن الآثار التى تركها الأسد على جسم الحارس ماذا تريد أن تقول ، يا سيدى المدير ؟

— لا تقاطعنى ، كل شئ أعددت له عدته ..

— أعرف .. أعرف يا سيدى .. لكنه مجرد خاطر عارض

— أين وقفنا ؟ آه ، تذكرت .. فلنكتب .. هذا ما أكدته أيضا الآثار التى تركها الأسد على جسم الحارس .. لم يعثر الأطباء الا على خدوش حول الأذن اليمنى ..

— ولماذا اليمنى ، يا سيدى ؟

— لتكن اليسرى ، اذن .. وجرح لم ينزف منه نقطة دم ،

— عظيم .. ولا نقطة دم واحدة ! أقسم على ذلك !

— أوراق رسمية هذه ولا تحتاج الى قسم على صحتها .

— هذا صحيح .. ولا نقطة دم واحدة ، اذن .. لا نقطة

دم ، وكفى !

— وجسم الحارس متكامل لم يحاول الأسد أن يقترب منه
بعد وقوعه على الأرض ..

— أجل ، حتى ملابسه كاملة •

— الأقفاص والأبواب مصممة بطريقة سليمة مائة في المائة
ويقف الحيوان أمامها عاجزا • يجب أن تؤكدوا لقرائكم انه لولا
الاهمال لما حدث شيء .. ويمكنكم أن تضيفوا أن الأسد
كان كسيحا • • مسكين • • منذ سنتين • • وكنا سنمنحه عكازا
يتوكأ عليه في بداية السنة المالية • • يجب أن تستثيروا عطف
الجمهور على الأسد •

تبادل المتفرجان نظرة مذعورة ، ومضيا مبتعدين عن مبنى
الادارة ، خشية ان يراها أحدهما • وهما يسترقان السمع
ويتلصصان فيأمر المدير بالقائهما في قفص النمر أو بركة
التمساح • • او ربما أحكم وثاقهما وطرحهما أرضا تحت أقدام
الفيل •

قال ذلك الذى يعرف ان لا شيء يتغير فى هذا الوجود :

— ستكتب الجرائد غدا ان الحادث وقع بعيدا عن الأنظار
• • ولم يستطع أحد من الجمهور أن يلاحظ شيئا على الإطلاق
• • على الإطلاق !

— ولكننا رأينا الدماء بعيوننا هذه !

— ومن أنت ؟ ومن أنا ؟ لسنا ممن يعمل لهم حساب •

— وكل هؤلاء الذين رأوا الحادث معنا ؟

— كم مهمل •• ومن أصر على أنه رأى اتهم بأنه مختل العقل أو قصير النظر • أو ربما هو مشير للاشاعات المفروضة •• يريد الاساءة عمدا الى سمعة الحديقة التى مضى قرن من الزمان على انشائها •

أقبل بعض الأطفال من زوار الحديقة يجرون صائحين •
فقد عثروا على رأس آدمى ملقى أسفل أحد كبارى بحيرات الحديقة • وقد تبين بعد انتشالها أنها لرجل فى نحو الأربعين من عمره ذى شارب كثيف •

تفرس المدير فى الرأس التى تقطر منها المياه والتصقت بها بعض الطحالب الخضراء • ثم قال :

— غير ممكن • لابد أن يكون مجهول قد حمل الرأس داخل حقيبة الى الحديقة ، وألقاها الى الماء فى غفلة من الجمهور والحراس بينما أخفى الجسد فى مكان آخر •

قال نائب المدير بصوت مضطرب :

— اذن ، أين الجسد ؟

— هذا هو السؤال ، حقا ! أين الجسد ؟!

فى أحد الممرات الجانبية تحت شجرة سنط قديمة شعشاء،
وقف عاملان من عمال الحديقة بزيهما الرسمى المهلهل .. وقد
لطخته الأوساخ قال الأول هامسا :

— نحن ثلاثمائة .. لا بد لنا من بدل خطر .. رأفة بعيالنا
.. نحن معرضون للاقتراس فى كل وقت .. وعلى الأخص أثناء
تقديم وجبات الطعام .. أتعرف كم طول ذراع الأسد ؟ سبعون
سنتيمترا .. بينما يبلغ طول الآنية التى يقدم بها الطعام ثلاثون
سنتيمترا فقط .. على الحارس أن يجد الفرصة ويتحينها لتقديم
آنية الماء والطعام ، قبل أن تصل اليه يد الأسد •

— الاعتمادات لا تسمح .. هكذا يقولون دائما كلما رفعنا
أصواتنا بالشكوى وطالبنا بالبدل •

— أتذكر الحادث الذى وقع عند بركة التمساح ، وانتهى
بقطع ذراع زميلنا قمر ؟

— وأذكر أيضا كيف استطاع فرس النهر .. هذا المخلوق
البليد الذى لا يشبع .. ان يقسم العامل المكلف باطعامه الى
نصفين •

— اننا معرضون دائما للهجوم .. زميلنا حارس الفيل ،
انحنى يربط ساق القيلة الشابة « رفيعة » بالجنزير الحديدى
كما يفعل كل ليلة .. اجراءات معتادة ، كما تقضى التعليمات ..

واذا بها تستدير ، وتدفعه أمامها حتى التصق ظهره بجوار الحظيرة
.. مضت تدفعه بجبينها اللعين .. وتضغط عليه وتضغط ،
بعصبية غير مألوفة .. كما لو كانت قد أظلمت الدنيا في وجهها
.. قال الطبيب البيطرى « مجرد مداعبة .. هزار » .

— الحق ان الدنيا أظلمت فى وجه حارسها •

— مضت تضغط عليه فى الحائط بقوة عظيمة حتى انهدم
الحائط من ورائه .. وألقت به الدفعة عشرة أمتار خارجا .
ومات •

— لا تأمين ولا ضمانات .. نحن عزل ازاء الوحوش فى
الحديقة .. وفى خارجها أيضا .. نحن الحراس المخلصون
معرضون للخطر •

كانت صرخات القروود تدل على أن الطعام المقرر صرفه لهما
لم يصل الى أقفاصها بعد ، رغم أن ميعاد الوجبات قد فات ،
وانها فى انتظار حسنة من أحد المتفرجين ، تسكت بها الجوع
فى أحشائها •

ويبدو أن الحديقة قد أصبحت مسرحا للحوادث التى
تتصل بالانسان أكثر من عرضها للطير والحيوان والزواحف •
فها هو من يجرى ويصيح :

— لقيط ، ياسيادة المدير •• لقيط عمره يومين •• وجدناه
أمام مبنى الصيدلية •

المشاكل تتزايد وتضيق الخناق على المدير • لكنه فى
حزم يأمر :

— الى الشرطة سلموه •• واستكملوا البحث بين الأشجار
والحشائش •• لا بد من تطهير •• نقبوا عن الجسم بين الأغصان
وعند الجذور •

دبت الحركة فى أرجاء الحديقة لحظة • ثم خبت •

قال الحارس الشاكى من بطش الحيوان لزميله :

— سنجمع اعانة للزوجة والأولاد •

خفض الآخر صوته ، وسأل :

— والمكافأة المستحقة ؟

— تحتاج الى تأشيرة المدير باحالة الأوراق • وأنت تعرف

كم تستغرق هذه التأشيرة على الأوراق •

— ياله من لعين •• ستلبس زوجته غدا معطفا من جلد

الأسد •• مهما كانت الأحوال •

— أتعرف ماذا أتمنى له ؟

يوما من الأيام .. ان عاجلا أو آجلا .. عندما يقف
أمام القضبان فى جولة تفتيشية .. أن تلتف ذراعا الأسد خارج
القضبان لتمسك بكتفيه وتمزقهما أربا أربا .. ولتفشل كل
الجهود لانقاذه من براثنه •

— متى سيكون الجناز ؟

— غدا .. سيخرج من هنا .. بعد أن تتم اجراءات الاعداد
للدفن •

— هل تعتقد انه سيصرح بدفنه ؟

— وماذا يريدون من مجرد جثة ؟

— يخشون الانقراض • ألم تسمع قول المدير .. « وجد
الجسم كاملا ؟ »

— وماذا فى هذا ؟

— أنت حديث العهد بالحديقة ، يا صاحبى ، سيحفظونه ..
ويودعونه أحد أركان المتحف .. ويكتبون لافتة صغيرة عليه :
هذا نموذج للعامل الذى يثير الشغب .. نموذج للعامل الذى
يسبب الازعاج والاقلاق .. للرؤساء .. باهماله .. باهماله لقى
حتفه .. والى جواره سيضعون الأسد •

— ألم تسمع انه سيسلخ من أجل معطف حرم جناب
المدير ؟

— لكل شيء استعمالاته .. الجلد للمعطف ، والهيكل
العظمى للمتحف .. أفهمت ؟

— وماذا يجدينى أن أفهم أو لا أفهم !؟

— كن واقعيا فى نظرتك للأمور • ألا معقول يا صاحبى
أصبح معقولا • ان تكون لا معقولا هو الواقعية الجديدة فى
هذه الحديقة العتيقة ..

انكب فى ذلك الوقت أفراد الضفادع البشرية على عملية
مسح شامل فى البرك والمجارى المائية الموجودة فى الحديقة بحثا
عن جثة الرجل الذى عثر الأولاد على رأسه بجوار بحيرة البط •

وفجأة دوت الصفارات فى أرجاء الحديقة ، وانتشر رجال
شرطة الحديقة يأمرون الناس بالخروج والانصراف •

سأل أحد الجالسين على العشب الأخضر باسطا فى منديه
بيضا مقشرا وحزمة كرات :

— لكن ميعاد الانصراف لم يحن !

هذا السائل تلقى نسعة من خيزرانة العسكرى البدين على
كتفه .. وعندما هب واقفا تلقى لسعة أخرى على عجزه .. أما
الضربة الثالثة فلم تطله ، اذ كان قد اقتنع بأن ميعاد الانصراف
قد حان ، فولى الأدبار نحو باب الخروج •

همس أحد الزائرين فى أذن زوجته التى تشبه الشهبانزى
حتى لتكاد تعتقد ان الحادثة التى وقعت منذ خمسة وثلاثين عاماً
عندما تمكن أحد القروء من الافلات من قفصه قد تكررت فى
زواج هذا الزائر الذى تبدو السعادة على وجهه الصبوح - همس
الزائر فى أذن زوجته وهما يلمان أولادهما الستة الصغار •
- لا بد أن حدثا جللا قد وقع أو ربما زائرا مهما قد وفد
•• هذه الحديقة لا تقفل أبوابها الا قبل الغروب بساعة ••
والشمس كما ترين لا زالت تتوسط السماء •

تأكد رجال الشرطة من خلو الممرات من الزائرين الذين
لا يكفون عن معاكسة الحيوانات •

وعند الباب دخل صف من حملة المباخر ، وقد ارتدوا الزى
التقليدى المجدد حتى يتلاءم مع مقتضيات العصر • ويتصدرهم
أحد قدامى الموظفين بالدرجة الثامنة الشخصية يقول بصوت
مهيب :

- وسعوا الطريق •• افسحوا الممرات •• الوزير الكريم
آت يوزع الخيرات •• لأسرة الفقيد خمسة وعشرون جنيها بصفة
عاجلة •• وفى كل شهر بعد ذلك خمسة جنيها ••
انفرجت أسارير الحراس لهذا الخبر •• واطمأنوا على
مستقبلهم من هجمات الحيوان •• لكن كما هو الحال دائماً
لا يخلو الأمر من شكاك بث الحيرة فى القلوب • قال :

— هذه التصريحات لكسب الوقت والاسكات .. وهل الكلام بحساب ؟ هل تشتري رغيفا بعشرة كلمات .. ولا حتى بمئات ؟

— ماذا تقصد ؟

— لا بد من مثل هذه التصريحات لامتناع الغضب .. والانطلاق الى المستقبل بأمان .. عندما يشيع فى الجو أن الشئون القانونية آتية لاجراء التحقيقات .. فمن حسن الادارة اطلاق مثل هذه التصريحات ومن أمثالها أيضا توزيع الأرباح •

— أهى من قبيل النكات اذن ؟

دوى صوت عربة الوزير عند الباب يسبقه رنين الدراجات وصفير الموتوسيكلات .. وعلت الجلبة على كل المهمات والتساؤلات •

كلمة هامة وأخيرة

* سيداتى ، سادتى ، ليست هذه أول محاضرة تحضرونها ،
وليس هذا أول كلام تسمعون . كثيرون قبلى قالوا لكم كلاما
صفقتم له ، وهللتهم طالبين المزيد . لماذا ؟ لأنه كلام من النوع
الذى يروق لكم ويخدركم . يجعلكم تنظرون الى بعضكم بعضا
وتقولون : ياسلام ، نحن حقا أذكاء . نحن حقا نعرف أشياء
كثيرة . نحن مركز الكون حقا ، وكل شىء فى الدنيا لنا . . . وانى
وان كنت واحدا من الذين قالوا لكم كلاما من هذا القبيل ، لكن
اليوم اصغوا الى جيدا . من له أذنان فليسمع ، ومن له قلب
فليسمع ، ومن ليس له اذنان أو قلب فليجتهد على أى حال أن
يسمع . . . انى لم آت لأسليكم . سوف أقول لكم كلاما كان
يجب أن تسمعوه من زمن بعيد . نحن اليوم فى عصر الصواريخ ،
ولهذا يجب أن تتكلم كلاما علميا . كل كلام مدعم بدليل .
وها هى الكتب ، والقواميس ، والمراجع ، كلها ملانة بالبراهين .

كلامى الليلة سوف يغير حياتكم • سوف يضع نهاية لكل شىء •
لا بد أن تدفن البذرة كى تطلع الشجرة • وأنا الليلة سأكلّمكم
عن شىء أبعد من الحياة والموت ، عن شىء أبعد من الخير والشر •
سأكلّمكم عن « السر » عن « السر الأكبر » سأخذكم فى جولة
الى حديقة الصخور • ومن تمزق جلده أو أصيب بجراح
فليتحمل • أن تكون بطلا وتقيا هو منتهى الكمال الانسانى •
على كل حال لا تخافوا • أتفهمون ؟

تعالوا تتكلم فى هدوء ، بغير انفعال ولا زعيق ، مثل
الأصحاب ، مثل الأحباب ، مثل الأزواج فى أول حياتهم
الزوجية •• ما الذى جاء بكم هنا ؟ كيف جئتم هنا ؟ لماذا لم
تجلسوا على المقهى ؟ لماذا لم تجلسوا أمام التليفزيون ؟ لماذا لم
تتمتعوا بالدفء فى فراشكم الليلة ؟ جئتم تنظرون الى ، وأنظر
اليكم ؟ تحملقون وأحملق فيكم ؟ لكن أنا لا أراكم • لم أحضر
من أجلكم • جئت من أجل أداء واجب • أنا رجل محاضرات ••
طوال عمرى ألقى محاضرات ، على أناس لا يفهموننى •• وكيف
يفهموننى ؟ لكن الكلمة شرف ، الكلمة واجب • وأنا أؤدى
واجبى • سعيد أنا أم غير سعيد ، هذا أمر آخر • ما من أحد
منا سعيد وراض • عندما تحس انك زائد عن الحاجة •• ملقى
بك على الكومة ، ليس لك مكان على الحصير ، ولا للقمّتك

موضع فى الطباق ، ولا لرجلك محل على سلم الأتوبيس ••
ماذا تكون ؟

هذه هى الحقيقة ، تتأكد لى وأنا أنظر فى عيونكم • كان
الأفضل الا تولدوا ، لكن البطن التى تسع واحدا تسع ستة
وسبعة وأكثر • والنتيجة ترونها : الزحمة ! •• ومع الزحمة
يضيع المعنى • ومع ذلك كلكم جئتم • ما من أحد يسمع • ومن
يسمع يتظاهر بأنه لا يسمع • هذه هى المشكلة ، أيها السادة •
هذه هى المشكلة • اسمعونى ، من فضلكم • افهمونى وصدقونى ،
من فضلكم ! غير معقول ، ان تكونوا منصتين لى • طالما ان
كلا منكم جالس على كرسى • ما الذى سيجعلكم تصدقوننى ؟
لو كنتم على الباب تريدون أن تدخلوا ولا تقدرّون لأظهرتم
استعدادا للاستماع ، ولقلتم من الخارج « نحن نصدقك ،
يا أستاذ • نريد أن نفهم • نود أن نصدقك » لكن مادمتم
جالسين على كراسيكم تقزقزون اللب وتأكلون الفول السودانى ،
فلا فائدة • ولماذا تريدون أن تفهموا ؟

بإختصار ، أيها السادة • انى أسمع كلا منكم يقول فى
سريره « يافرحتى ، لا زلت سليما معافى • لا زلت أسبح فى
بركة الطين ، فى بركتى • بالنهار ، يحجل الغراب فى الأرض
الخراب ، أمامى ، يافرحتى ، لا زلت أحياء فى بركتى • وبالليل
يغنى الضفدع للمقر وراء الغمام ، وأنا فى بركتى لا زلت أغوص •

أغوص حتى رقبتى يافرحتى ! » انى أسمعكم كما أسمع نفسى •
ولا داعى للانكار •• أجل ، أجل ، فالليل أسود والنور عذاب
يوجع العيون • حذار أن يوقد أحدكم شمعة ، فالقبر كله ظلام ،
ولو ظهر طيف منير ، سيقولون انه عفريت • سيقولون عنه اتهام ،
وهل يحتمل أحدكم مسمارا يدق فى كفه ، أو حربة تغرس فى
جنبه ؟ هل يقوى أحدكم أن يشم لحمه محترقا ؟

لكن استيقظوا ، !أفيقوا • الألم شىء فظيع ، ياخوانى ،
هذا صحيح ، لكن نار جهنم متقدة • استيقظوا ، استيقظوا ،
سرقتم السكين ، دققوا النظر من حولكم ، انظروا ماهو مقبل
عليكم من ورائكم ، من أمامكم ، من داخلكم • انهضوا •
لاتحققوا بعيونكم الفارغة ، بعيونكم السرحانه • ماذا تنتظرون
منى ؟ ليس لدى ماأقوله ، ليس عندى ما أعطيه لكم • احمدك
يارب • اخفيت كل شىء عن الحكماء والفهماء ، واعلنته
للعبد لله •

مجيئكم الليلة كان غلطة كبرى ، لسبب بسيط • ان الغلط
مكتوب عليكم • لماذا ؟ انا نفسى لا اعرف ، لكن دعونا نفكر
معا • وجودكم تافه مبتذل ، خال من القلق ، رغم انكم على
الدوام مهمومون ومنشغلون • طائشون ، وكل حقيقة مشوشة
فى ادمغتكم • كل واحد منكم موظف او عامل او تاجر ، ولكن
ليس فيكم من هو انسان متميز • اتسمعون ؟ تحبون الثرثرة ،

وتدسون انوفكم فى كل شىء • تريدون ان تذوقوا كل أكله ،
وان تدخنوا كل سيجارة ، وان تشاهدوا كل رواية ، وأن تضعوا
اصابعكم على كل جرح • تسالى ، تسالى • حد واخذ منها
حاجة ؟ ياسلام ، كل شىء فى الدنيا طاهر وفى الوقت ذاته غارق
فى الدنس والخطيئة ! اتسمعون ؟ حياتكم الخاوية ، تملأونها
فحسب • تقلدون فلانا وفلانة • • ماذا تلبس رندة بنت الحاجة
زيدة ؟ آخر موضة • انظروا كيف عقصت شعرها ؟ كيف زججت
حواجبها ، وخضيت اظافرها بالطلاء ؟ وانت ، يا أستاذ ، تقول :
انظروا كيف نال مرزوق ترقية تلو ترقية : وصعد السلم قفزا
وعدوا • يجب ان افعل مثله • سأتزوج ابنة جودة بك ، واصير
باشمديرا • اتصدى للتوافه • لماذا قد وصل هو وأصبح شهنديرا؟
كل منكم لا يريد ان يكون نفسه فحسب ، بل يريد وفى غمضة
عين ان يغدو نجما ، اما الزهد والكرامة والتفكير الهادىء الحلال
فهذه كلها امور اصبحت امور صغار • انى اعرف • انتم
لا تسمعوننى • كلامى لا يعجبكم •

سيداتى ، سادتى ، لست مغنيا مشهورا ولا مقدمة
للبرامج فى التليفزيون ، كونوا شجعانا ولو لمرة ، وحزارى
ان تصفقوا • اتبهوا لاتراجعوا • ليس بلازم ان ينفعكم كلامى
ويصلحكم • مامن شىء يفيد وينفع • كل واحد يحمل جثة ويشى
الى الورا • يتقدم ، ولكن ليس الى الامام • لاتسبحوا ضد

التيار • انى أعرف سواعدكم ، كم هى ضعيفة ومتعبة • انى
اعرف كل شيء •

ها أنتم تنظرون الى ساعاتكم ، وتسألون كم بقى من
الوقت • انى حكيم مثل الثعابين • كلا ، لست منكم ، وان لم
اكن افضل منكم • ومن اجل هذا كان قلبى معكم • اعرف ليس
مكانكم هنا ، وماجئتم لتسمعوا • بل جئتم لتجلسوا على
كراسى ، وتمنعوا غيركم من شغلها ، وربما كانوا احق منكم •
انتم تريدون ان تكونوا موجودين فحسب ، ان تكونوا فى
الصورة فحسب • ومن يدري ، فقد تتكلم الجرائد عنكم غدا ،
وقد تكون الكاميرات مصوبة عدساتها السحرية عليكم الآن ؟
ما من احد مكانه هنا • كل معزول عن الآخر • الى جواره وليس
الى جواره ، يسمعه ولا يسمعه ، حتى انا ليس لى شأن بكم •
كان عندى شيء كبير جئت اقله لكم • منذ اللحظة التى نظرت
فيها الى عيونكم فهمت انكم لا تريدون ان تسمعوا • غير قادرين
انتم أن تسمعوا الا أصواتكم ، مثل الذى يغنى فى الحمام • غير
قادرين أن تروا الا أنفسكم • تريدون أن تلعبوا • وماذا
تلعبون ؟ لعبة المراية ، لعبة الاستغماية ، هذه هى اللعبة ، لعبة
كل يوم •

ثمة شيء يطاردنى • يجرى ورائى ، يضيق على الحصار ،
يكنم أنفاسى أيها الناس ، ابعده عني ، سوف يخنقنى • منذ أن

ماتت زوجتى ، وأنا احيا وحدى • لم أذق من بعدها لقمة طرية
اما ابنتى فهى - بينى وبينكم - من الخنافس •• اطالت شعرها
الى ركبتها ، وطوال النهار ترتدى بنطلونا ، وتقرأ كيركجور
وافلاطون وتسمع اسطوانات • ولاتغسل وجهها • ادخل فأجدها
شاردة الذهن ، دموعها منهمة على خديها كما لو كانت قد قشرت
جوالا من البصل • تقول لى «مامن شىء يجعلنى أبكى ، يا بابا ،
قدر الفلسفة» انها بالحق فائزة وفى سن الزواج • الا تعرفون
احدا يريد ان يطلع من دينه ، اقصد يكمل نصف دينه ؟ جزاكم
الله خير جزاء • عنوانى فى دليل التليفون • ليس تحت حرف
الدا ل • الناس تناديني « يا دكتور » ، هذا صحيح ، لكننى
لست دكتورا • ومن يجد العريس ، أى عريس له عندى الحلاوة ،
أجل الحلاوة ، سموها كما تشاءون لكن الحلاوة هذه هى التى
تسير اليوم كل الأشغال • ذلك اننى وان كنت رجل محاضرات ،
وطوال النهار ألقى المحاضرات ، الا أننى عملى ، أيها السادة ،
عملى جدا • اعرف كيف انجز الأشغال ، اتسمعون ؟

ولنرجع لموضوعنا • قبل ان أجيء اليكم احسست كأننى
على باب كشف جديد ، كأن النور الذى أرى به الدنيا وكل
الناس قد تغير • لا أخفى عليكم ، قلقت • لكن - صدقونى -
لم أجد بى الرغبة فى الهرب • لأول مرة وجدت كل شىء يمكن
ان يكون له معنى • لكن كل شىء مالبث ان تبخر عندما رأيت

عيونكم الزجاجية ، عندما رأيت وجوهكم الملونة التي تضعونها على وجوهكم • لا بأس • لست ناقما عليكم • اننا لم نكن أحرارا عندما ولدنا • هل كان بإمكان احد منكم ان يكون وردة أو غزالا ؟ ومن اللحظة التي نوجد فيها لا مفر لنا من القناع والقفاز والحوائط نحتمى بها • ذات مرة قشرت برتقالة ، وجدت بداخلها دودة • صرخ ضميرى وقال لى «أترى ؟ نحن وجود للفناء» قلت لنفسى «يا بروفيسور نحن نستمر فى الحياة سواء فكرنا أو لم تفكر ، سواء أطلنا التفكير أو أبطلناه ، والدودة فى قلب الانسان ، فى أعماق الاعماق فلاتين» انى أتكلم بالطبع عن الناس الصادقين مع أنفسهم • أغمضت عيني ، قفز امامى فى الظلمة وجهها النحيل • • الحب من النظرة الأولى • • الشفتان الغليظتان والاذنان المفلطحتان • رحم الله أمى ، كانت تقول اذا أردت الزواج تزوج امرأة مثل الحائط كى تتحمل خدمتك • الصوت مثل رنين العود ، اليدان النحيفتان المنتهيتان بأصابع مثل المخالب • وأخيرا السيقان • • آه ، نسيت ، انا أعشق صوابع القدمين أيضا • هذه المرأة حبي الثانى والاخير • مومياء ، لكن لو كنتم قد رأيتم ابنتى ، وهى ترتدى البنطلون ، ستدركون ان مومياء الزمن الغابر أجمل بكثير من بنات اليوم • •

بعد ان ابتدأت أيها السادة ، وقد قررت أن أفتح صفحة جديدة تكون الصفحة الأخيرة فى كتاب الأكاذيب ، أصبح أملى

الوحيد وأنا أكلمكم الليلة ألا تسمعونى ، حتى لا تعرفوا أنفسكم
على حقيقتها ، فتقولوا عنى «محاضر فاشل» ، وأنا لا أريد أن
يقول عنى أحد هذا ، فأنا طوال عمرى أقول محاضرات ، وأتعيش
من المحاضرات ، ولا يقطع أحد عيشه بيده • انى أشكركم على
حسن استقبالكم ، وعدم فهمكم وهو أقصى ما يطمناه محاضر
نزيه مخلص لمهنته ومستمعيه • تصوروا ماذا كان يحدث لو
كنتم وعيتم كلامى فى أوله ؟ لو كنتم فتحتم قلوبكم مثلما تحددقون
فى هكذا ؟ آه ، كانت الدنيا تتغير ، والحياة تدب فيكم من
جديد • لكن قانون التقادم الطويل أقوى من كل قانون ، وهو
يسيطر عليكم ، الرحمة على امرئ قال «دع الأمور تجري فى
أعنتها • والفتنة نائمة لعنة الله على من أيقظها» عيونكم ، نظراتكم
الشاردة ، تريد هذا • وشفاهكم المزمومة تستجدى وتقول
«اتركنا فى حالنا • اتركنا فى سباتنا • لا توقظ ضمائرنا من
مراقدها • فما قد مات مات • وما هيل عليه التراب لا تقربه •
لا تنبشه نبش الغراب لكومة من الروث» لقد جئت لألقى سيفاً
لا سلاماً ، جئت لانتقض ، لأفرق الأبن عن أبيه ، والبنت عن
أمها ، والكنة عن حماتها • هكذا جئت فى أول الليل ، فارساً
شجاعاً تداعبه أحلام نبيلة لانتقاذ البشرية • لكن جلستكم
المسترخية ، وجوهكم المطمئنة ، أنفاسكم الرتيبة ، قفازاتكم
المصقولة ، على الأخص قفازاتكم هذه — كل هذا جعلنى أغير

ماكنت أريد أن أقوله لكم • ربما ، ليس شفقة بكم ، بل كى
أوفر على نفسى وجع الدماغ • ان قلة أولئك الذين يتمنون
الموت يثبت ان الحياة ليست سيئة الى هذا الحد • وانى أريد
أن أعيش مثلكم ، كى ألقى المحاضرات ، محاضرات كثيرة ،
وتصفق لى الناس ، وتقول «هائل ياأستاذ هائل !» فما أشهى
النجاح السريع لمن ذاق طعمه ، ومن دوى التصفيق له مرة صمت
أذناه فلا يعود يسمع غير صداه •

ختاما ، أنا أشكركم ، فلو كنتم قد صحوتم على كلامى
الأول ، كانت ستحدث أمور كثيرة ، مضاعفات خطيرة ، تبينت
انى لست أهلا لها ، ولا أتم ايضا ، جاليلو نفسه تخلصى عن
الحقيقة بكل بساطة عندما هددت حياته • وأوصيكم ألا تنسوا
حكاية العريس ، أى عريس لبنتى ، ضعوه فى بالكم ، وأنا غير
ناس للحلاوة ، وعلى استعداد ان ادفع مهرا كى أفرغ لخطيبتى
الصغيرة • بارك الله فى أولادكم وذريتكم الصالحة • لا حرمتنا
الله من أفضالكم ، واسمحوا لى أن أقول لكم الى اللقاء فى
محاضرة قادمة ، والجايات كثير • ولا مفر من ان تجيئوا كى
أحضركم • لا جدوى • سنتقابل فى محاضرات كثيرة • فلا بد
أن تتكلم وتتكلم كى لانسمع أنفسنا ، أين المفر لكم منى ؟ كل
شعرة فى رؤوسكم معدودة ومحسوبة ، ومقدر على الاحياء أن
يتلاقوا • • وهذه الدنيا الصغيرة العريضة ملمومة ولا آخر لها ،
طالما ان فيها ممن هم مثلى ، وممن هم مثلكم كثيرين •

كاتب النقاير

* فى الحديقة الجرداء ، التى علا الشحوب زرعها بالميدان الكبير ، تحت سماء زرقاء داكنة تسبح فيها غربان قاتمة السواد على ارتفاعات شاهقة ، جلست العرافة البدينة ذات الشفتين الغليظتين والذراعين الأبانوسيتين ، تحديق فى قطع الودع الأبيض الملقى على الأرض فى اتجاهات مختلفة • ولم تقل شيئاً • • طال صمتها • رفعت بصرها الى الغربان العالية • وعادت تلقى الودع على الأرض فتناثر فى اتجاهات مختلفة • طرفت عيناها ، والتزمت الصمت ، لكنه كان أبلغ من كل كلام يقال •

الا ان زيدا الذى كان يتلف الى سماع كلمة تطمئنه • الح فى السؤال • أشار الى الودعة النافرة فى أقصى اليمين •

أخذ صدر العرافة العارى يتهدج كما لو كانت ثمة يد خفية اطبقت على عنقها • جحظت عيناها ، وتطاير منها الشرر • صوبت

نظرات نارية الى عينى زيد الذى لم ينقطع عن الاستفسار • ثم
صرخت فى وجهه بكلمة •

دوى صوتها فى كل الأرجاء • وارتجت الأرض • وشقت
اسقف المنازل ، وتماوجت زرقة السماء • أما الغربان الهائمة
فى الفضاء الفسيح البعيد ، فلم يبد عليها اكتراث •

جمعت العرافة البدينة ودعاتها على عجل ، والقت بها شئ
السلة ورفعتها على رأسها واطلقت لساقها العنان • هتف زيد
منزعجا فى أعقابها «والتقرير ؟ !» ابتعدت العرافة • غابت عن
العيان •

أحس زيد بالوحشة تغزو صدره ، والرعدة تتسلل الى
عظامه • انه لأمر جلل ، كارثة كبرى ، صاعقة ، انقلاب ، زلزال
طوفان، حدث عظيم سيغير مجرى الحياة • ماذا؟ هل صارت الأرض
ملكا مباحا لا سيد له ؟

اجتاز زيد الميدان الفسيح حيث اجتمعت فرق الرقص على
وقع الدفوف والطبول والأكف • لم يقف عندها فقد كان ذهنه
معتما منشغلا بالبحث عن معنى الكلمة التى قذفتها العرافة فى
وجهه •

خرج الى شوارع السوق ، واستلفتته على واجهة أحد

المحلات لافتة كتب عليها «أشياء مستعملة» ثم العبارة المغرية
«تسهيلات كبيرة» دخل ، وسأل صاحب المحل :

— طلبى ليس بالجديد • هل تستطيع ان اسأل ؟ عندى تقرير
أريد ان اكتبه •

غاب صاحب المحل فى أعماق محله المظلمة ، وعاد يحمل مع
أحد عماله صندوقا أسود ثقيلًا ، وقد رسمت عليه جمجمة
وعظمتان متقاطعتان :

— طلبك ثقيل ، يا كاتب التقارير • يمكنك أن تنتحى بهذا
الصندوق جانبا وتفتحه • سأضعه لك ، هناك ، خلف الستائر •
تعال •

جلس زيد • شمر عن ساعديه ، وفتح الصندوق •

قفزوا امامه • كان أولهم يقرأ صفحات من كتاب «الأحلام
الميتة» والثانى يمسك بفرشاة ينظف بها أسنانه بعناية بالغة • أما
الثالث فكان يغط فى نومه • لم يكن فى الزنزانة من يعرف ان
العقوبة ستنفذ فيهم الليلة • ثلاث عشرة درجة سيرقونها الى جبل
المشنقة •

لم يكن احد منهم يتصور انه سيدفع ثمن الجرائم التى
ارتكبها • كانوا يؤمنون بأن للمال تأثير لايقاوم وكانوا قد ملأوا
البنوك فى الخارج بالاموال التى نهبوها •

اصطف على الجانبين رجال المطافىء بزيهم الأحمر وخوذاتهم
النحاسية اللامعة وأحذيتهم المرتفعة الى الركبتين ، والكشافة
بسناديلهم الخضراء المعقودة حول الرقاب ، والمرشحات بقلنسواتهن
الزرقاء المائلة على الجباه أما الفرقة الطبية بأرديتها البيضاء فقد
وضع أعضاؤها اقنعتهم على الانوف خشية ان تتسرب الجراثيم
الى الحلق •

تدلت على الحوائط شعاعات كثيرة بالخط الأسود
العريض كما كانت الابواق المكبرة تذيع الاغانى الحماسية •
صعد الاول • كان شاحبا ولكنه متمالك نفسه • نظر الى
الناس ثم الى المشنقة •

ومضى فى وجهه ما يقرب من أن يكون تعبيراً عن الخوف
أو ربما عن عاطفة أخرى • لكن سرعان ما عاود السيطرة على
نفسه واكتسى وجهه جموده السابق ، ونطق اسمه بكل جلاء •
قال له الجلاد ، وهو ينحنى له :

— لمدة طويلة •• كنت تقوم بعملى •• ها أنا الآن
أخدمك • عين بعين •

فى بضع ثوان كان كل شىء قد انتهى •

صعد الثانى • كان هذا المسخ ذا عينين مكرتين ويدين مثل

يدى سفاح محترف • حصل على تقارير متتالية بالكفاية الفائقة
ونال ترقيات كثيرة ، ولكنه لم يكن ليقتنع • كان يطمع فى ترقية كل
يوم • وفى سبيلها لم يكن يتورع عن عمل أى شئ •

قال له الجلاد :

— كنت قاتلا موهوبا •

أراد أن يتنصل من جرائمه :

— فى الحقيقة لم أكن حرا •

قال الجلاد بحزم :

— لا تعاود الكذب ، وأنت على وشك أن تقابل ربك •

عاد يراوغ :

— كنت عبد المأمور • وانى لأقبل قدميك ان تعفو •

كان أنفه أحمر ومنتفخا مثل الطماطم • لكن الجلاد الذى
لا تخونه ذاكرته ، وضع الغطاء الأسود على رأسه ، ولم يلبس قلبه

بعد كل تنفيذ كان الحبل يغير ، يتنفس الحاضرون الصعداء ،
ويدوى التصفيق •

فى الساعة الواحدة والدقيقة السادسة والخمسين ، أدخل
المستشار • كان يصدق على كل قرار ، ويصدر الأحكام مثلما
ينطلق الرصاص من مدفع رشاش • لم يقض بالبراءة طوال عمله
القضائى • قال « لا » مرة فى أول اشتغاله ، ثم لوحوا له ، فقال
« ولم لا ؟ » صار ينظر الى من فى القفص بغيرة كان يسميها
حيادا • وبموافقته السرية ، كان يرسل بالخصوم الى حيث كانوا
يتلاشون وراء الأسوار •

ربط الجلاد يديه خلف ظهره • وسأله عن اسمه • صاح
فيه :

— انت تعرفه •

كرر عليه الجلاد السؤال الروتينى • صاح فيه بمزيد من
الاصرار :

— انت تعرفه جيدا •

كان فكاه متدلين مثل فكى كلب مسعور • أحكم الجلاد
وثاق يديه • صعد أولى الدرجات ثم لم تقو ساقاه على حمله •

أسرعت نبضات زيد • الموت ! ياله من شىء سهل ومهول
بسيط ومخيف فى الوقت ذاته •

ألقي الحاضرون نظرة أخيرة على الجثث قبل نقلها الى
توايتها •

خيل الى زيد وهو ينظر الى وجه أحدهم انه انما يرى نفسه •

أحس بسرعة سيخا ساخنا ينزل فى ظهره ، وبقبضة حديدية مثل حبل المقصلة يضيق ويعتصر قلبه • فتح فمه حتى يستنشق بعض الهواء • تقلصت أصابعه على مسندى كرسيه الخشبي • ومرقت أمام عينيه تلك الكلمة التى كان يقرأها عند ختام كل عرض سينمائى « النهاية ! النهاية ! »

بذل فى أعماقه جهدا يائسا • صارع عدوا خفيا • استنشق بعض الهواء • عاد قلبه الى دقاته • • هدأت نظراته التى كانت قد توحشت •

غمغم قائلا :

— حمدا لله • حمدا لست منهم •

تلفت حوله • لم يتنبه أحد من الموجودين الى المأساة التى دارت فى أعماقه وهلة •

تناول قدحا من الماء كان موضوعا على منضدة مجاورة • ورشف رشقات بطيئة ، كان ينظر الى كل حركة من حركاته بدهشة كما لو كان يرى نفسه لأول مرة • •

وقال يحدث نفسه :

— تصور ، لو لم يدخل بعض الهواء من خياشيمي لكنت
الآن فى عداد الأموات ؟!

كل شىء كان سينتهى • كل شىء ؟!

تذكر عمله • سيطلبه المدير ليسأله السؤال التقليدى •
« ماذا تم فى الملف ؟ »

مضت سنوات ولم يصل الى نتيجة لكن ماذا يفعل ؟ جرب
العلم ، جرب السحر ، لم يبق الا الجنون • انهم يتعمدون اظهارة
بمظهر العاجز عن الاتيان بالحلول • يعهدون اليه بأصعب
الموضوعات على الدوام • وينتهزون لاحتياها فرصة انصراف بقية
الزملاء • لكن اذا كسب قضية هذا الملف فسوف يمكنه أن يظفر
دون أدنى شك بالترقية التى طال انتظاره لها •

كل ذلك بدا له الآن غير ذى أهمية • كما لو كانت أمور
لا تعنيه •

عاد فجأة وتصور نفسه راقدًا فى تابوت ويديه معقودتين
على بطنه •

أجفل واقفا وهو يصيح « لا • لا » لكنه كان مجهدا • فما لبث
ان ألقى بنفسه على مقعده • حرك أصابع قدميه داخل حذاءه •
ثم مد ذراعيه وشرع يحرك أصابع يديه وهو يتأملهما فى دهشة
واعجاب •

تسللت قطرة المصل الرمادية مقتربة منه • ثم تمسحت في
سرواله بلا أدنى صوت • سحب ساقيه ونظر الى عينيها الخضراوين
وتنبه لأول مرة الى حركاتها اللينة الناعمة دون صوت • لم يكن
يحب الحيوانات الأليفة من قبل ، أو على الأقل لم يكن يكثر
بها • • لكنه اليوم نظر اليها نظرة لا تخلو من مودة • كانت الكائن
الحى الأول الذى جاء يعيده الى الحياة • سر لأفكاره وانحنى
يربت على رأسها • وظهرها بحنان ، وهى تستجيب اليه فى
وداعة •

قال لها :

— يالها من شىء عظيم • • الحياة !

التفت اليه من حوله ، ونظروا اليه فى دهشة • لكنه لم
يكثر • سر لأنه سمع صوته • وعاد يشرح بأفكاره :

— شىء عظيم حقا أن يكون بإمكانك أن تحرك أصابعك ،
أن تسمع صوتك ، أن تسير بينما ملايين من الناس قبلك
أصبحوا لا يستطيعون حتى أن يحركوا أصابعهم الخنصر • • حتى
نابليون أو كنجيز خان لا يستطيع أن يفعل ذلك مثلك • لعنة الله
على كل ترقيات الدنيا • المهم هو الحياة ذاتها •

لوح للحاضرين بخنصره • وضحك لأفكاره •

كان قد بدأ ينشرح صدره • « لولا لطف الله لكنت معقود

الذراعين فى تابوتى يدورى » تذكر ان الطبيب قال له ذات مرة
أن قلبه قد يتوقف عن الخفقان فى أى وقت بالليل أو بالنهار •
قرر أن يقلع عن بعض عاداته ، حتى تصير حياته أكثر انتظاما ،
فلا يلحق بأولئك الذين رآهم فى صندوق الدنيا •

عادت القطة الرمادية بعد أن قامت بجولة ، وساءها عدم
اكتراث أولئك الذين فى التواييت • عادت وتمسحت من جديد
فى سروال زيد • أنحنى وربت على رأسها • أين رأى هذه القطة
من قبل ؟ انه يكاد يذكرها • قال لها :

— الحياة شىء جميل • هيه ؟ شىء رائع • أليس كذلك ؟
كان أجداده على حق • كانوا يخافون عضاتها ، فكانوا
يعبدونها • نظر الى ساعته • هاله كيف تقدم به الوقت • هم ان
ينهض ليلحق بمكتبه ، لكنه عاد وعدل • قال لنفسه • « يا شيخ ،
لا داعى لذلك • اعتبر اليوم أجازة » •

أطل من الشباك • رأى الناس تروح وتغدو فى الميدان •
تصعد الترام وتنزل كما لو لم يكن قد حدث شىء جل فى هذا
العالم أو كأنما لن يحدث شىء جل فى هذا العالم •
فوق البيوت العالية كانت السماء بزرقتها تنادى ••

قال :

— يا له من ضوء جميل • كل شىء يلمع كما لو كان قد
أحيط بالماس •

تسلل الضوء الى أعماقه •

أخرج قطعة من النقود • وتركها على المنضدة لصاحب
الصندوق ومضى يجتاز الميدان المكتظ بالناس الى الكورنيش ••
وظل يسير والنسمات تداعب جبينه الى السلسلة ومنها الى
الشاطبي ، ثم سيدى بشر ، ثم المنتزه • وهو يقول :
اليوم أجازة •• اليوم عيد • لم العمل المتواصل ؟ لم ؟ لم ؟
بل لم العمل على الاطلاق ؟ لم ؟ سأستقيل • سأستقيل ••
سأستقيل وأعتزل ! »

لكن اذا استقال •• اذا اعتزل •• فكيف يؤدي التزاماته
اليومية ؟ وهل المعدة والامعاء تحتمل الاعتزال ؟ والجسم ••
هذه العظام البالية •• كل ذلك هل يحتمل البرد فى الشتاء ؟
وصاحب البيت ، هل ينتظر ؟ واذا انتظر شهرا فهل ينتظر شهرين ،
أو ثلاثة ؟ •

مضى يسير على الكورنيش بخطى حثيثة ، وقد دس يديه فى
جيبي البنطلون ، والهواء يعبث بشعره • يصنع خديه ببرودته •
ويدخل من أنفه وفمه منعشا قويا ، يبدد الأوهام من عقله • ويشد
قامته ويرفع رأسه عاليا ، كلما استنشق هواء البحر النقى ، ذاق
على شفثيه طعم الملح فى الذرات المتطايرة من البحر الرحيب الذى
يمتد فيلتقى بالسمااء عند الأفق ، حيث تمضى فى طريقها المجهول
سفن تبدو من بعيد كسلاحف سوداء •

ليلة الأحرار

* كان يوما متعبا من أيام الخدمة • لم يكن العسل ثمانى ساعات متواصلة هو الذى جعل الصول حسنى عبد الحق يشعر بالارهاق عندما القى بجسمه على الفراش فى غرفته • رقد على ظهره يستجمع شتاته ، وقد تسمرت فى بؤرة وجدانه الوقائع بكل وضوح • يعرف جيدا ان الاشارة كانت حمراء • بنفسه ضغط على المفتاح ، وأغلق المرور • كان الصباح لازال مبكرا ، ولم تكن حركة السيارات قد اشتدت بعد عند التقاطع الذى عين له منذ سنوات • لقد رأى السيارة البيضاء الأنيقة مقبلة من أول الشارع لم يكن هناك غيرها قادمة ، كما لم يكن ثمة سيارات أخرى فى الطريق المقابل ، ولكنه أضاء النور الأحمر ، وأشار بيده للسيارة البيضاء الأنيقة من بعيد أن تتمهل وتقف ، وذلك حتى تعبر الشارع المرأة العجوز • عند مكان عبور المشاة نزلت من الرصيف محنية الظهر ومضت تذرع الشارع الى الرصيف المقابل بخطواتها

الوئيدة المثقلة بعبء السنين والاهمال والمرض ، لكنها لم تكمل عبورها ، فقد اندفعت نحوها السيارة الأنيقة يقودها شاب أطل شعره وصففه • القى الموت الأبيض بالعجوز على الأرض الأسفلتية • ومرق مزيدا من سرعته • هرب • لكن الصول عبد الحق التقط الرقم بسهولة قبل اختفاء السيارة • اتخذت الاجراءات فورا ، والى المستشفى نقلت العجوز مشجوجة الرأس • بعد ساعات ، تم القبض على الشاب ، فتبين انه لا يحمل رخصة قيادة وقد استقل سيارة أيه الذى يشغل منصبا كبيرا •

بدأت منذ الظهيرة تمارس على الصول عبد الحق ضغوط شديدة • • توسلات ، تلويحات بعطايا ومغريات أخرى ، تهديدات • مستقبل الفتى المدلل وحيد أبويه بين يديه • ليس مطلوبا منه سوى أن يقرر ان اشارة المرور لم تكن حمراء ، وان العجوز لم تتحرز عندما نزلت من الرصيف ، بينما كان المرور مفتوحا لسيارة ابن مدير البنك • جاءت أمه أيضا ترجوه • امرأة نحيلة شاحبة تلبس شعرا مستعارا أصفر • تدخن بشراهة ، وتصيح فى زوجها وفى كل من حولها بالقسم ، ولكن الى الصول عبد الحق كانت تتوسل بصوت شاك • لم تكن الاشارة حمراء • مفهوم ؟ هذا كل شئ • كلمة واحدة يتوقف عليها مستقبل الفتى النجيب الطالب بالسنة النهائية من كلية الطب • كان عسكرى المرور كلما ألحوا عليه وحاصروه اشتد اصراره وتشبث بالصمت • كلمه المحامى

أيضا ، بل ورأى فى عين الضابط نظرة مشجعة • العجوز ماتت ، راحت لحالها ، ولم تترك وراءها أحد ذا بال ، والحي أبقى من الميت • سأل الصول عبد الحق كى ينبههم الى عبث مسعاهم « وماذا اتم فاعلون فى أمر الرخصة ؟ ابنكم غير مصرح له بالقيادة ! » قال المحامى « سنستصدر له تصريحاً بتاريخ سابق » أراد الصول عبد الحق أن يستوضح « وهل هذا ممكن ؟ ! » قرأ الأب ذلك فى عينيه فبادره قائلاً « هذا شأننا » وأضاف المحامى « كل الأبواب تفتح ، لماذا لا تجرب ؟ »

فك أضرار سترته ، ولم يحس برغبة فى القيام من رقدته • ظلت عيناه تحدقان فى السقف • وفدت رائحة زخمة من المرحاض • كان قد ألفها طوال السنين التى سكن فيها حجرته هذه المجاورة للمرحاض فى آخر الطريقة • لكن فى بعض الأيام كانت الرائحة تعلو كريهة للغاية • لم تمتد أصابعه باحثة فى جيبه عن علبة سجائره • • كان يعرف أنه يجب أن يتدبر نقوده حتى نهاية الشهر • فى هذه الغرفة ماتت زوجته ، وهى تضع طفلها الوحيد الذى لم يعيش بدوره بعدها • لم يشعر بحاجة الى أن يتزوج من جديد • أحياناً ، تتابه الحسرة على عادل الذى رحل الى وديان الصمت مبكراً • • كان يتمنى لو عاش ابنه • كان سيربيه أحسن تربية كى يشب رجلاً يدافع عن المظلومين والمهانين ، وحتى ان لم يستطع ان يرد اليهم حقوقهم ، فعلى الأقل ليشعروا انهم ليسوا فى هذه الحياة

وحدهم • ما كان سييخل عليه بمصروف • وما جدوى المال ان لم يكن للخير والفلاح ؟ شعر مبكرا ان الذى يلزمه هو أن يصفى حساباته مع الحياة ، فقد اقصته عن حضنها ، ولفظته منذ سنى شبابه الأولى • أصيب بأحباط شديد ، بحزن حتى النخاع ، لم يلتفت حتى الى ناصحيه بأن يطلب من المحكمة ان تحكم له بتعويض على الطبيب الذى كان مشغولا تلك الليلة بلعب القمار فى بيت بعض الأصدقاء • كانت بطة تنزف نزيفا حادا • أعطوها حقنة ، مهدأة - على حد قول التومرجى - استراحت قليلا، ثم صرخت •• صرخت •• ابتلع الصمت كل صراخ بعد ذلك ، حتى صراخ وليده الذى نزل الى ليل الحياة عريانا يتما يحتاج للأكسجين والعلاج • وما الجدوى من أى تعويض ؟ هل يعيد المال امرأته التى اضاعها الاستهتار والاهمال ؟ راح كل شىء لحاله الآن ، ولم يبق سوى شجن فى النفس مقيم • ومن وقت لآخر يتتابه شرود يقصيه عن دنيا الناس •

صار معارفه يتندرون عليه ، ويصفونه « بالعبيط » ويقولون ، « غاوى فقر » أما هو فقد انغلق قلبه • داخله احساس بأنه هو الذى قتلها ، فلو كان قد ذهب بها الى عيادة خاصة ، ربما ما أصابها ذلك الاهمال الذى أصابها فى انتظار طبيب المستشفى المجانى • صار فى عزلة • لاذ بزهد اعتبره بعض رفاقه فى السلاح غفلة وغباوة ، واعتبره البعض قناعة ندرت فى أهل هذه الدنيا •

تهدل الزى العسكرى على جسمه ، حتى قيل انه مصاب بالسكر ،
لكن هذا لم يكن مرضه • كان يتسم ويقسول « وكيف يكون
الرجل بدينا فى هذه الأيام ؟ » •

زحفت العتمة الى غرفته • لم يحس بالرغبة فى أن ينهض
ليوقد لمبة الجاز ، فقد كان بحاجة الى الظلمة تهدي أعصابه •
أدرك المحامى ان التعامل معه يحتاج الى جهد أكبر • وان الوصول
اليه يقتضى تغييرا فى خطته • لجأ الى مراوغة استخف بها الصول
عبد الحق اول الأمر • أشعل المحامى غليونه ، ونظر اليه من وراء
نظارته القاتمة قائلا بهدوء مثير « فكر جيدا • لا بد أنك لاتعرف
ماذا تقول • هل تستطيع أن تتأكد مما اذا كنت لم تضىء النور
الأخضر ؟ » أخذ المحامى نفسا من غليونه ، وغدت نظراته جارحة ،
« يقول زملاؤك أنك على الدوام غارق فى الماضى • سرحان •
معروف عنك شرود البال • انت تائه » أهو تائه حقا ؟! كانت هذه
اول مرة يحس فيها بأن الحياة تتحرش به • تائه ؟! ماذا يراد منه
الآن ؟! ان يخرج من عزلته والا هدمت على رأسه ؟! انتحى به
المحامى جانبا وقال له « فكر • ونحن رهن اشارتك • ستصلك
النقود فى مطروف معلق ، ولن يدرك أحد بالأمر • نحن نعرف
كيف تتعامل فى هذه الظروف » وطلب من المحقق أن يؤجل
الشاهد الوحيد الادلاء بأقواله الى الغد •

يعرف الصول عبد الحق ان الآخرين يعتبرونه « فكدى •

غاوى فقر « ولكن الكلمات التى قالها له المحامى اليوم أحدثت به اضطرابا لا قبل له به • كان عذابه اليوم أكثر من أى يوم مضى كأنه وقف لأول مرة أمام مرآة ، ورأى حقيقته عارية • ود أن يفتح قلبه لأحد ، وأن يخبره بأنه لم يعتمد النكد لأحد ، وأنه ليس « غاوى فقر » بل كثيرا ما فكر فى كل الأشياء الجميلة التى كان يمكن أن يشتريها لعادل لو كان عامر الجيب •

ود لو أشعل سيجارة • حاول أن يغير مجرى تفكيره • مد يده وأبعد ياقة سترته عن رقبته ، فقد كانت تخنقه • ثمة شيء ضاغط يعتصر صدره • فى الآونة الأخيرة ، مضى وكيل المالك يهددهم باخلاء غرفهم مدعيا قدم العقار وأيلولته للسقوط • وحتى يثبت لهم قدرته على تنفيذ ما يلوح به تربص بنجية الأرملة العجوز وهى تقضى بعض حوائجها بالخارج ، وألقى امتعتها القليلة على قارعة الطريق • كان مالك العقار الدكتور صبحى رجب - ومن لا يعرف طبيب الأشعة المشهور ؟ - بحاجة الى مكان يخزن فيه بعض الأجهزة المستغنى عنها ، فدبر وكيله لها مكانا بغرفة نجية بجوار السلم عند مدخل البناية التى يسمونها « الوكالة » وعندما تشبثت الأرملة العجوز بالعودة الى « مطرحها » وذرفت الدموع قبل الوكيل توسلاتها وبعض النقود ، ورضيت أن تكوم امتعتها على شبرين الى جوار أجهزة البية «ربنا يخليه لنا» وأضحت تنام

على الأرض ، وقد جثم عليها جهاز الأشعة المستهلك مثل حشرة
حديدية هائلة .

كانت ليلة بلا نهاية • لم يقرب النوم عينيه • فك حزامه ،
أما حذاؤه فكان ينوى ان يخلعه فيما بعد • كانت عزلته طوال
كل هذه السنين أمانا له من الحاجة للآخرين • ادار وجهه الى
الحائط • الهواجس ذاتها تدور بضراوة فى داخله • فكر فيما
سيدلى به من أقوال غدا • نهض جلس الى كرسى ، وأشعل
سيجارة • هل أضاء النور الأحمر ، أم كان قد أضاء النور الأخضر ؟
هو غارق فى الماضى حقا • أيعنى انه قتلها ؟ • • كما قتل زوجته
من قبل ؟! لماذا لا ينجو بنفسه ، ويحاربهم بسلاحهم أيضا ؟ فليطلب
عن شهادته أعلى ثمن • ألا يفكرون بمنطق الصفقات ؟ فليخرج
اذن من هذه الصفقة بغنيمة أكبر ! هم تحت رحمته هذه المرة ، ولن
يرفضو له طلبا • ليس الأمر بحاجة الا الى مجرد ايماءة بالقبول ،
اطراقة رأس ، وينتهى كل شىء على ما يرام • وسيقول للمالك
ووكيله « وداعا ، وجدت غرفة أفضل من هذه » وعندما
يستفسرون من أين له الخلو ، سيتسم ولن يجيب • سوف يبيع
عزلته غدا ، فكل شىء أضحى يباع ويشترى • وقد آن الأوان
أن يعرف قواعد اللعبة • أحس بغصة فى حلقه ، ورغبة فى البكاء •
منذ أمد طويل نضبت الدموع فى مقلتيه ، وكثيرا ما استجداها
كى تخف وطأة الضيق الجاثم على صدره • كان بحاجة اليها أكثر

من أى وقت مضى كى يغسل احتقاره لنفسه ، وعجزه عن أن
يتخذ قراره •

راح يدخن بشراهة • يشعل سجائره المكدودة • سيجاره
تلو سيجارة • أحس بأن نهايته تدنو مع كل نفس ينفثه • لم يكن
سوى نفر من أنفار الشرطة ، فى السابعة والأربعين من عمره ،
لا يذكر انه قام يوما بعمل خارق • لم يرتكب اثما كبيرا فى حياته،
ولا خيرا كبيرا أيضا ، ولكنه أحس الآن بأن عليه أن يتخلص من
عجزه ، وأن يفعل شيئا • رأى الكثير أثناء خدمته الطويلة • ومن
التصاقه بالشارع تكشف له وجوه قبيحة • رأى الضير يسقط
تحت العجلات ، فتؤخذ بصمته على أقوال لم يقرأها ، ويحفظ
المحضر • رأى الموت ، والكشط • والتلاعب • وكل شىء فى
لجة الصمت يغوص • عليه الآن أن يفعل شيئا ، من أجل الضير
ونجية ، من أجل عادل والعجوز وبطة ، من أجل سكان الوكالة،
وربما من أجل الناس أجمعين •

سحق بحدائه عقب سيجارته الأخيرة • طوفان داخل صدره،
يضغط قفصه ، يبحث عن مخرج • ذهب الى النافذة يريد ان
يصيح فى الليل « يا عالم ، لا أريد ودكم الزائف ، فلن يبقى لى
من لقاءكم سوى كبرياء جريحة ! » أحس كيانه مهددا بخطر مبهم
داهم • هب يدافع عن وجوده • اضطروه الى ذلك • استفزوه •
لاحقوه الى أخص اسراره • أفقدوه حلمه وسكينته وهدوء باله •

فتح الشباك • أطل على الليل • أسرعت أنفاسه تفصد عرقه
على ساعديه وجبينه • وأحس بحياته تسيل على ظهره ، من مكانه
لمح الأرض الفضاء أمام الوكالة هوة داكنة • أول الأمر كانت
مرتعا للأولاد ومتنفسا • ثم سورتها المؤسسة العقارية ، فكان
الأولاد يقفزون من السور • زادت المؤسسة من ارتفاعه حتى صار
متعدرا تسلقه واجتيازه • ثم جاءت شركة اعلانات وثبتت عليه
حوامل معدنية قوية ، ألصقت عليها لافتات تجارية ملونة تطل
على الطريق الرئيسى الذى تكثر فيه الحركة • أخيرا ، علقت
اعلانات مضائة أيضا • نور النيون يلمع وينطفئ • أحمر ، أخضر
بنفسجى ، ظلام ثم ينسكب فى الغرفة الأحمر العدوانى ، فالأخضر
يحاول أن ينشر الذلة باسم الهدوء والسكينة ، فالبنفسجى المخاتل •
الأحمر الدامى من جديد ، عين سكير متقد يصب حممه فى احشاء
الصول عبد الحق • اعلان يقول بالخط العريض « بادر أنت »
ثم تصوب اليد المشرعة نحوه علبة سجائر ، تخطب بها صدره ،
تسحق ضلوعه ، تمزق أعصابه ، تعرضه • • تعرضه
تشجعه • • تنبش أعماقه • • تهينه • • تكتسحه • • تفقده اتزانته ،
تخرجه عن طوره ، يطيش صوابه • يفلت منه الزمام • هل يمكن
ان يقول « لا ؟ » « لا » مكروه هو • اسقط فى يده • اطبق على
عنقه • لوى ذراعه • ودفع بالسكين فى جنبه • الأحمر الشهوانى
• • الأخضر باغراءاته ووعسوده ، البنفسجى بوقاره وحججه

وهمساته • ثم الظلام يهيل ترابه الأسود على كل شيء • مد
يده بسرعة تفك أصابعه المتوترة أضرار الجراب • سحب مسدسه
القديم • اطيقت راحته على عجزه المعدنى • اختنقت انفاسه •
أضحى الحصار الآن محكما • لا بد أن يقاوم • ان يدافع عن
نفسه • نزل الى الحوش • جرى خارجا • دار حول السور • شهر
مسدسه عاليا • أحكم تصويبه • تقلص أصابعه على الزناد •
ضغط • رجل أغمض احدى عينيه ينعم بالحلاقة بالماكينة الكهربائية •
الرصاص فى عينه الأخرى • ضغط • الرصاص فى بطن الراقصة •
ضغط • الرصاص فى ظهر المستحمة • الرصاص فى الأسنان
البيضاء اللامعة • « أجل ، انا الذى قتلتها » هذا ما سوف يقوله
عندما تهرع الشرطة وتلقى القبض عليه • كانت الاعلانات هناك •
جاثمة عليه • رابضة هناك • انهم هناك • معذبوه كلهم هناك •
الأنياب البيضاء اللامعة التى تنهش اللحم الآدمى فى
غابة المدينة صباح مساء • الاعلانات هناك ، الراقصة خواتم فى
ملهى الأهرامات • كل ليلة هى هناك • عشاء فاخر • الحجز
بالتليفون هناك • للدخول رسم عشرة جنيهات هناك • لم يكن
جسد امرأته عاهرا مثلما الأجساد فى هذه الاعلانات • عارية أخرى
تستحم فى بحيرة عطور وصابون هناك • امرأة رشيقة تقود سيارة
فاخرة • معاجين ، ملابس مستوردة ، فساتين سهرة • رحلات
رقصات ، أفلام • • كل شيء هنا ، فوق رأسه • والمرحاض هناك •

أفرغت الفوهة الملتهبة ما فى جوفها من رصاصات • ثم دوت
الصفارات نائحة متوعدة قادمة من كل الأنحاء •

الثقب

* كان على أن أخلع ذلك الضرس منذ أمد • آلمنى مرة
ثم سكن الألم • آلمنى مرة أخرى ، فتناولت أقراص الاسبيرون ،
فانزاح الألم • ثم آلمنى مرة أخرى • فلجأت الى المضضمة • فى كل
مرة تجرفنى المشاغل • تارة فى المكتب استدعى لتحقيق أو شهادة
وتارة يطلبون من ابنى فى المدرسة حضور ولى أمره ، ويأخذون
عليه التعهد تلو التعهد ، وتارة تعلن زوجتى فى البيت حالة
الطوارئ ، فهى لا تنقطع عن التردد على طبيب النساء للعلاج
والاستشارة • لكن هذه المرة ، عاد الوجع ، وتزايد • لم تنفع فيه
المضضمة ، ولا المسكنات • كان يجب أن أذهب الى الطبيب •

فتحت فمى • دقق الطبيب النظر الى أسنانى • ثم هز رأسه
وقال « أجل ، ها هو هناك • الضرس الثانى الأيمن ، بالفك
السفلى • لا بد انه يؤلمك » هزرت رأسى مؤكدا « جدا ،

يا دكتور • قال • خراج • ليس بالامكان أن تفعل شيئا الآن •
يجب أن يزول هذا الخراج • سأكتب لك على أقراص البنسولين •
ابحث عنها فى الصيدليات • قرص كل أربع ساعات • قلت له • « ألا
يمكن خلعه الآن ، يا دكتور ؟ » • قال • « ليس ذلك ممكنا • مادام
الخراج موجودا عند جذور الضرس ، يجب أن نظهر تلك الجذور
أولا » •

تركت مقعد الطبيب ، وأنا أمسح فمى بمنديل ورقى • على
الحائط علق لوحة ، كبيرة ، مظلمة • بها عينان تلمعان بين نباتات
غابة استوائية • قلت له • « كيف حدث كل هذا ؟ » • ضحك
وقال لى • « يبدو انك تريد أن تتعلم طب الأسنان » قلت له • « كلا •
أقصد • • » قاطعنى قائلا • « الثقب الذى أحدثته السوسة قد
اتسع وعمق • انظر اليه • انظر » • فتحت فمى ونظرت فى المرآة
رأيت النقطة السوداء على الضرس الموجوع • قال الطبيب • « كل
شئ يبدأ من الفم » خيل لى انه قد اتسع ، وأصبح بثرا كبيرا ،
هوة سحيقة • قال لى • « ثانية بعد ثانية مضت السوسة تنخر ،
دون صوت ، دون كلل ، دون عون من أحد • أنت وحدك
تساعدنا • أنت الوحيد الذى سمحت بوجودها وما أن جاءت
وحلت فلا فكاك لك من معاولها • رأيت لصوص الآثار ؟ بالليل
ينبشون • يهوون بمعاولهم ، ويشقون الأرض ويغوصون • كل
من حولهم غافل عنهم • هذه الغفلة هى التى تمكن من التسلل •

أنت تأكل ، تسرع بالنزول • لا تغسل أسنانك ، أو لا تغسلها
جيدا • تشرب في المكتب فناجين القهوة • تدخن لفائفك •
وتترسب على الجدران شتى الرواسب • تثرثر • تعقد الصفقات •
تكسب القضايا • تترافع تدخل محلا للحلوى • تتلذذ بأطباق
البسبوسة • تشتري أشياء • تودع مبالغ في رصيدك بالبنك •
يزداد احساسك بالطمأنينة ، بينما البقايا تتخمر ، والتسلسل يمضي
• لا تعتقد أنه على أسنانك قاصر • أنه يسرى في خلاياك فتبدو
التجساعيد • لا تحس بالمشيب يدب الى فوديك أو الى مؤخرة
رأسك ، حتى وأنت تقف أمام المرأة معتنيا بمظهرك ، معجبا بسطاهر
شبابك ، أو معزيا النفس بأنك لازلت به محتفظا • • رغم كل
شئ ، لكن المشيب هناك • يتسلل ويزحف • وفجأة يبين أمام
عينيك ، ضيلا أول الأمر ، فلا تكثرث • لازال في الوقت متسع
• • هكذا تقول لنفسك • وفجأة تكتشف انه احتل مواضع
جديدة • لا شئ يحدث فجأة • يجب أن تعرف ذلك • السبب
هناك • النتائج ترى بعد ذلك • السوسة قد وسعت ثغرتها • وهى
ماضية ، رغما عنك ، ودون أن تراها • افتح فمك جيدا وانظر
اليها •

فتحت فمى فتحة أكبر • « أنظر » ملت الى الأمام • ازدادت
اقترابا من المرأة • مثل جب بدالى ، وعلى جانبيه صخور بيضاء •
هتف الصوت الجائر « اقترب أكثر • اقترب • افتح فمك ،

وأنظر • • أطللت • دخلت ذلك الجب • أطبق على • وقفت أنظر
حولى • حوائط لينة ، لا يسمع لدقاتى عليها أدنى صوت • بحثت
فى جيوبى ، أخرجت عود ثقاب وأشعلته • رفعته فوق رأسى ،
وبدأت أتبين ما حولى • فى ظل الضوء المهتز • بدا لى كل شىء
كأنه يتهاوى على رأسى ، ولكنه فى اللحظة الأخيرة يتماسك ،
ليعود فينهار على • دون أن يتهاوى • الجو خائق ، والرائحة
كريحة تفد من الحلقوم • حركة تقلص • وجدت نفسى انزاق
وأندرج على سطح اللسان ، واقترب من ماسورة البلعوم •
زحفت • تشبثت بحبات الرمل الملتصقة بسطح اللسان • انحرفت
جانبا ، وتعلقت بإحدى الصخور البيضاء • صعدت عليها متخططا •
عندما ارتقيتها ، جلست أستمع لأنفاسى • ملت بجذعى الى الخلف ،
فوجدت نفسى أسقط فى هوة أخرى ، أضيق • ارتطمت فى
سقوطى بجدار صلب أملس ، عاجى • فى قاع ذلك البئر ، وقفت
أنظر الى أعلى جاحظ العينين قائلا لنفسى منذا الذى سيصعد بى
الى فوق ، من سيخرجنى ؟ سمعت من يحدثنى ، ولكن لا صوت
من حولى ، ولا زامة ، فقط هناك معاول تهوى ، معاول دقيقة
مرهفة • أرض القاع من تحتى تهبط ، وحوائط البئر من حولى
تتسع • أكانت السوسة ، تعمل ؟ الصوت يراقبنى • ملايين العيون
الصغيرة السوداء تلتصق بمسامى ، وتنظر الى ، متسلقة زاحفة •
رفعت أصابعى الى وجهى • ملايين العيون رفعت الى عيني •

انكملت تضاءلت • كياني يتناقص • يتفتت • يتآكل • يزول •
« أين أنت ؟ أين ذهبت ؟ » كان هذا صوت الطبيب يفد من بعيد ،
من خارجي • فتحت فمي كي أصبح • خرجت سريعاً ، مهرولاً •
التفت الى الطبيب الذي يبحث عني « ها أنا ذا ، يا طيبي ؟ هلا
خلعت لي خرسى ؟ أرجوك ، الآن » قال لي « كلا ، كلا ، لن
أحرمك من متعة المضغ ، لا زال العمر أمامك طويلاً • فقط ،
استخدم الأقراص كل أربع ساعات • وعندما يزول الالتهاب ،
تعال • سأحشوه لك » • أحسست بالردم ينهال على رأسي •

قال لي الطبيب مودعاً « لا تهمل • للأسنان علاقة بكل
الأمراض • ضعف البصر ، والسمع ، وأمراض المعدة ، والروماتيزم ،
والشلل • أجل ، والشلل أيضاً » •

محظرة لقاء

● عندما يجيء الموت •

ذلك الذى يخطف الرضيع من ثدى أمه ؛
كما يختطف العجوز الذى تقدمت به السنون
عندما يجيء ذلك الرسول كى يأخذك ، فليجداك
على أهبة الاستعداد جاهزا •

من كتاب الحكمة لبناح حطب

* صادفت احالة صفوان حلمى الى المعاش صدور أمر
بالطرد من البيت الذى سكنه منذ ست وثلاثين سنة • ظهر فى
الواجهة شرح طولى ، أجمع خبراء التنظيم أن المبنى أصبح آيلا
للسقوط ، وربما هوت الانقراض على رؤوس السكان فى أى وقت
بالليل أو النهار • وقد نقل بعض السكان أمتعتهم على وجه
السرعة الى بيوت أخرى • • أغلى ايجارا بالضرورة من شققهم فى
العمارة التى شاخت ، ولم تعد تقوى على الوقوف صلبة العود •
وان كان البعض قد مضوا يتشبثون بشققهم الى آخر لحظة ،
واستماتوا فى عدم اخلائها حتى جاءت اليهم أوامر الطرد مصحوبة
بتهديدات السلطة بالاخلاء عنوة ، والالقاء بهم الى عرض
الشارع ، هم و « كراكيهم » - على حد تعبير مندوب التنظيم
الذى استشارته مراوغة السكان فى الامتثال للقرارات التى صدرت
اليه الأوامر بتنفيذها ، ويود أن تنفذ دون وجع الدماغ •

أما صفوان فقد كان من المسلمين • جمع حاجاته ، وانتقل الى سكن جديد ، بلا جلبة أو جدال ، فهم — وقد رأى الشرخ الطولى قاصما لكاهل البناء — ان الأمر قد قضى ، ولا مفر من الاذعان ، فلكل شىء آخر ، حتى اذا كان بناء اعتبر زينة الحى عندما شيد على ناصية أحد شوارعه التى شقت منذ سبعة وستين عاما أو زهاء •

استغنى صفوان عن أشياء كثيرة ، مرغما على أى حال • باعها الى تاجر أشياء مستعملة برخص التراب • ولم يكن الشن نصب العين ، بل كان الاستغناء عن أشياء لم يعد لها مكان فى الحيز الجديد هو المرام • فمن غير المستطاع أن تستوعب غرفتان حاجيات شقة من خمس غرف وصالة ، ومن الطراز القديم أيضا • ومهما كانت أشياء الأيام الخوالى عزيزة على القلب ، فليس لشقق هذه الأيام قدرة على استيعابها ، ولا يبقى لصاحبها اضطرارا — اذا أراد أن تبقى ملتصقة به — سوى الذكريات •

رتب صفوان ما جلبه معه من قطع الأثاث وصف ما احتفظ به من كتب على الأرفف • واستعان بأم نوال — الوحيدة التى بقيت له من الحى القديم — فى كنس الشقة الجديدة وإزالة الجير والطلاء الزائد من على الأرضية البلاط • بعد بضع ساعات لم يغالب صفوان الرغبة الحارقة فى أن يفتح الباب الخفيض ، ويخرج الى الشارع تلو الشارع فى هذا الحى الجديد الذى لم يزدحم

بعد بالناس ، فبدت أرجاؤه مقفرة باردة اذا ما قورنت بأرجاء
الحى القديم البعيد الآن ، الذى تتردد أصداؤه فى المخيلة كأنها
نعمة شجية من اسطوانة على الحاكي العتيق الذى باعه صفوان
ضمن ما باع •

فى الشهور الأولى ، كان يغلق باب شقته ، ويمضى الى محطة
الأتوبيس يركبه الى الحى القديم ليجلس فى مقهى « السعادة »
مع جيرانه القدامى يشرب كوبا من الجنزبيل كعادته ، ويتابع
من يلعبون الطاولة ، فاذا كانت اللعبة دورا من الشطرنج زاد
اهتمامه وتسمرت عيناه على القطع الخشبية التى تتحرك بحذر
وذكاء على الرقعة المقسمة الى مربعات بيضاء وسوداء • ولكن
مع الوقت أحس بأن المشوار بدأ يصبح طويلا وثقيلًا • ربما
استفحل الزحام فى الاوتوبيسات هذه الأيام ، أو ربما تزايدت
أصابة موتورات هذه السيارات بالعطب ، فيطلب من الركاب
النزول لأخذ الأتوبيس التالى • وفى الصعود والمزاحمة والهبوط
مضى صفوان يشعر بالتعب ، فثبّت همته ، وقل تردده على الحى
القديم الطيب • وبخاصة ان أعز جيرانه الحاج عمران ما لبث أن
توفاه الله ، وظل مكانه فى المقهى وفى القلب خاليا • أما جورجى
أفندى صراف المالية القديم فقد حزم أمتعته ورحل على كبر الى
كندا حيث كان قد سبقه أكبر أبنائه الدكتور سامى الذى صرف

عليه دم قلبه فى مدارس الفرير ، ومضى يلم شمل الأسرة حوله
فى موتريال •

فى ذلك المساء عاد صفوان متأخرا من عزاء آخر أصدقاء
الحى القديم ، وهبى أفندى ، باشكاتب عموم الأقلام • مرض ،
ولم يمهل المرض طويلا •• عند باب العمارة التقى صفوان بميو
•• اعتصرت قلبه بين ضلوعه عينان فوسفوريتان تسلطان عليه
نظراتهما من وراء الزجاج السميك • وما ان اكتشف انهما عينا
قط مختبئ حتى كان صاحب العينين النفاذتين اللامعتين أسرع
منه ، فقد أقبل عليه يموء ويتمسح فى سرواله متوددا • ثم مضى
فى أعقابيه يقفز درجات السلم صاعدا • أطل عليه صفوان فى
الظلام وابتمسم ، فقد كان الحيوان الأليف يرفع اليه رأسه المستدير
بين الفينة والفينة ، ويحرك ذيله المنتصب كما لو كان يدا ممدودة
اليه بالتحية •

عندما وصل صفوان الى باب شقته ، سقط منه المفتاح •
انحنى يلتقطه • ولم يغالب نفسه من أن يربت على رأس ميو الذى
استجاب اليه واستكان لملاطفته • كان فراؤه رطبا من أثر الأمسية
التي ما كانت تخلو من لذعة باردة تنذر بأن الشتاء قد خطا حثيثا
الى الأرض • وعندما فتح صفوان الباب كان القط أسرع منه فى
الدخول • ومضى يتكشف أنحاء البيت الذى قرر أن يسكنه •

مع الأيام ففرت الأحاديث ، تباعدت العبارات ، واضحى الكلام فى المقهى فافترا أجوف • كل قول صار تزييدا • كل ايماءة جثة بلا روح • أغصان يابسة تقطع وتلقى فى النار التى تظل منطفئة • كل شىء ركـد • كل نفس همدت وقأهبت للرقاد • لم يعد هناك ما يقال • لم يعد ثمة ما يضاف • كيف أصبحت ؟ مثلما أمسيت • ما الأخبار ؟ لا جديد • ما من جديد كان ينتظر •

لم يحس صفوان بذلك الحى القديم متغلغلا فى دمه قدر ما أحس به عندما نزع عنه • كل شىء يذكره به ، وعلى الرغم من أنه لم يعد يتردد عليه فى الآونة الأخيرة ، الا أن الحنين اليه ظل الى حين يملأ قلبه • صدق اذن ذلك القول بأن بطن المرأة بعد الوضع تبحث عن الجنين الذى كان بها • يلوم صفوان نفسه أشد اللوم على رحيله لكنه يعرف انه ازاء أزمة المساكن المستحكمة ما كان يمكن أن يجد خرم ابرة الا فى هذه الضاحية الجديدة على مشارف المدينة التى تمتد فى جميع الاتجاهات ، والى هذه الامتدادات تلفظ المدينة القديمة أبناءها من أحشائها • لكنه ما كان يلبث أن يهدأ ويقول لنفسه « كل أرض الله سواء » ثم فى النهاية ، هذه الشقة الصغيرة البيضاء ، حديثة الطلاء ، لا عيب فيها بعد أن ألف سقوفها الواطئة وحوائطها المتقاربة وكواتها الضيقة •

لم يعد الحى القديم هو الحى الذى يعرفه • انفصل عنه •
لم تعد صورته فى مخيلته وصورته فى الواقع تتطابقان ، ابتعد
صفوان • ابتعد كالأرض بالنسبة لبأخرة تمضى الى عرض المحيط •
استحال كل شئ فى ذلك المكان القصى الى ذكريات ضمن الكثير
من الذكريات الأخرى •

هكذا كان الأمر أيضا فى شبابه عندما جاءه أمر النقل الى
القاهرة كان يعتقد انه ليس بممكن أن يبتعد عن الاسكندرية ،
ويقول نحن السكندريون مثل السمك اذا أخرجنا من مياها متنا •
أول الأمر لم يترك شقته هناك •• فى محرم بك •• ظل محتفظا
بها شهرا تلو شهر • ومضى يقطع المسافة بالقطار ثلاث مرات فى
الأسبوع • ثم بعد خمسة أشهر سكن شقته فى الحى القديم •
ومضى يسافر الى الأسكندرية كل أسبوعين ، ثم بعد ذلك كل
شهر • بعد سنة كان يذهب الى الأسكندرية فى الصيف فحسب •
ثم لم يعد حتى فى الصيف يذهب اليها • أصبح الحى القديم
ذو المآذن والعطفات والمشربيات ودكاكين العطارة هو التربة التى
انغرس فيها وتشعبت فى طينتها جذوره •

فى الحى الجديد لم يعقد صفوان صداقات حقيقية ، بل
أصبح له بعض المعارف فحسب •• الأسطى أمير الحلاق ، الذى
أدرك سريعا أن زبونه على المعاش ومقطوع من شجرة ، فكان
يتفنن فى استخدام المقص حول الرأس ومن الخلف وعند الأذن ،

دون أن ينقص من الشعر شعرة ، فتطول الجلسة وتمضى الثروة
التي كان يضجر منها صفوان فينشغل عنها بتصفح المجلات التي
تعرض كثيرا من الموضوعات المثيرة كمصرع راقصة ، أو اكتشاف
مقبرة فرعونية نهب اللصوص محتوياتها ، أو تلف بعض الموميات
فى المتحف حيث كان يعمل فترة من حياته الوظيفية .

ومن معارف الحى الجديد أيضا الحاج عطوة البقال ، الرجل
المتدين الذى يملأ حوائط دكانه بالآيات المكتوبة بخط كوفى
أكثر مما يملأ أرففه بمواد البقالة . مسبحة صفراء ولحية
بيضاوية . . كان صفوان يمر عليه ويشترى قطعة من الجبن لعشائه
أو علبة سمك محفوظ لغذائه أو ثمن زيتون أسود كلما توافر
الصنف . . يتبادل معه الكلام فى حال الدنيا ، ويؤكد له الحاج
عطوة ان أخلاق أولاد اليوم قد تدهورت الى الحضيض ، وان
يوم الحساب قد دنا ، ويدلل على ذلك بالعديد من الامارات
والشواهد . . لكن كل ذلك - كما لاحظ صفوان - لم يكن
يمنعه من أن ينقص فى الكيل .

زادت الحبال الواصلة بالآخرين تقطعا ، واتسعت من حوله
هوة الصمت . كان يجر كرسيه الى جوار النافذة البحرية التى
تطل على الشارع ، ويقتل الوقت يتابع المارة . لا زال الناس
يجيئون ويذهبون . لا زال البعض يمضى واثق الخطى يدق
أسفلت الطوار بحذائه . يتداخل السائرون . يمضون . يمضون .

يحتفون عند المنعطف • يأتي غيرهم • يمضون • يتعدون
ويتبدون •

في الغروب ، يخف المارة ، وتهدأ الحركة ، عندما تغلق
البنوك والشركات أبوابها في الحى التجارى القريب ، ويصبح
الطريق مقفرا ، وعلى الجانبين بضع شجيرات هزيلة ، تصارع
أغصانها النحيلة الجرداء لتطول السماء • صورة بنفسجية تزداد
انطفاء كلما انطفأت من العينين نعمة البصر ومن على أسفلت
الطريق يتعالى وقع سنابك جواد أبيض يقبل من عند المنعطف
مسرعا وبلا راكب يمتطيه • ثم أخذت الاذنان تضعفان • ومن
بعدهما كل الأعضاء •

إذا ما تكلم اليه أحد يسمع الكلام كأنه لا يوجه اليه
ولا يعنيه ، يبدو له غريبا عنه • يطرق أذنيه ولا ينفذ الى عقله
أو قلبه • ثمة صوت فى أعماقه على العكس من ذلك يتمرد على
كلام الناس الموجه اليه • ويهتف به : ما شأنك أنت وهؤلاء ؟
أمامك أمور أكثر أهمية وجسامة من هذه الشرثرات الجوفاء • هذا
الصوت يزداد فى أعماقه تمردا ورفضاً لكل ما يفد اليه من
الخارج • أنت مقبل على حدث جلل • • وكل يوم بقى لك يقربه
منك • • ماذا ستفعل ؟ عليك أن تتأهب له •

لم يبق على الاطلاق شيء • أضحى الوجود خواء مضمنا •
كان لابد من الخروج • فكر صفوان • فكر بواقعية • فكر فى

وضعه الراهن ، فيما بقى له : الأصدقاء ؟ راحوا • القراءة ؟ عشاء
• الذكريات ؟ طيور مهاجرة • • وماذا بعد ؟ وجد أن الشيء
الوحيد الذى بقى له ، الذى يجذبه وينتشله من خوائه ، الذى
يعتصر قلبه — ما أن يتأمله — بقبضة فولاذية ، ويطالعه بوجه
مبهم غامض ، هو ذلك الرفيق الموجود وغير الموجود ، الذى
يجرفه دون أن يعرفه • • شدد صفوان قلبه • طرد هواجبه •
وبقى له شيء من الصفاء الذهني • يذكر الامتحانات ، ليس
المدرسية منها فحسب ، بل امتحانات كل يوم • فى تلك اللحظات ،
كان يذوب فيه كل شيء ، ولا يبقى منه سوى ذهن متوقد متربص •
عاد اليه ذلك الصفاء القديم ، ومضى يقلب الأمر ، وينقب فيه
بإمعان وتمحيص • انه هو ! اذن ، هو ؟ كيف ؟ أين ؟
هنا ؟ متى ؟ وعلى الأخص كيف ؟ ما هو ؟ !

ذات مساء ، وهو يقرأ تحت ضوء المصباح ، أحس يديه
ترتشان ، وترتتش معهما الجريدة التى يمسك بها • وضعها
على المنضدة المجاورة ، وبسط يديه يتأملهما • قلب راحتيه ، ونظر
اليهما • كان الجلد غصنا تناثرت عليه البقع البنية • لا شيء تغير •
فقط ، العروق الخضراء بطول ظهر الكف زادت نفورا واخضراراء •
اهتزت الأصابع النحيلة الشاحبة قليلا • ابتسم • ارتست تجاعيد
ثلاث على كل من ركني فمه • حدث نفسه قائلا « ترى ، هل
شخت هذه الأيام ، يا أبا مدحت ؟ » وتحجرت الابتسامة على

شفتيه • منذ بضعة أيام وهذا التساؤل يزداد الحاحا رغم محاولات التملص من الاجابة • مضي يحصى ما انقضى من السنين « لم تكن بالكثيرة جدا » هكذا كان يهتف فى أعماقه هاتف • « لكنها ليست على أى حال بالقليلة » هكذا أيضا همس فى أعماقه صوت زلزل صمت البيت من حوله •

عزم على النهوض ليعد كوبا من « الينسون » • لو كانت أم نوال هنا لجنبته مشقة البحث عن أعواد الكبريت واشعال الموقد ، والتنقيب فى دولاب المطبخ عن علبة الينسون ، لكنها ليست معه كل يوم • وحتى فى اليومين المحددين لمجيئها كل أسبوع كانت تتأخر كثيرا فى الحضور لتسلم عملها فى الصباح • • وأحيانا تنقطع أياما وأياما وتعود بأعذار وهمية • يدرك صفوان ذلك جيدا ، الا أنه يقول « بعد كل هذا العمر وطول العشرة ، هل يمكن استبدالها ؟ » وهل يضمن أيضا أن من ستأتى لتحل محلها أفضل منها ؟ ثم انه فى الحقيقة ما كان يرتاح الى غير أم نوال التى عاصرته منذ أيام الحى القديم • • فى ساقيه نقر يكاد يكون منتظما مثل نبض القلب ، وفى قدميه ثقل يشدهما الى الأرض ، فيتوق للبقاء فى كرسيه جالسا ، ممدد الذراعين على قטיפئة المسندين الخشبيين المنقوشين • تقلصت أصابعه الآن على رأسى الأسدين المحفورين فى مقدمة المسندين • دس قدميه فى الخفين الصوفيين ، وهم بالقيام • زاد ظهره ، انحناء كما لو كان العبء

قد ثقل على الذراعين • غلبه التعب فعادت عظمتا عجزيه النافرتان
تفوصان في الوسادة الطرية المنحولة • أمواج وأمواج تنهال على
منكبيه في خواء البيت • عاد يلوذ بالجريدة • نام في كرسيه •
مال رأسه الأثيب على صدره ، وعلى الخد الضامر انعكس ظل
أصفر • تدلت ذراعه اليمنى الى الأرض ممسكة بالجريدة • كان
يقرأ فيها عن جريمة قتل ظل القاتل فيها مجهولا • أما راحته
اليسرى فقد استقرت في حجرة ساكنة بخطوطها الغائرة • وفي
خنصره لمعت دبلته الذهبية • ومع نومه نام الألم في ساقيه وظهره ،
ويا للسعادة أن يكون المرء بلا ألم • حملته السفين بعيدا • وفي
حلمه • مد يده وربت على شعرها • ما عاد جلده جعدا •
ولا للكيسين المرتسمين تحت مقلتيه وجود • يسير الآن معها
ممشوق القامة خفيف الخطى على مشى رملى في حديقة
« الشلالات » شاب هو في السادسة والعشرين الى جوار فتاة في
العشرين • فاحمة الشعر تنسدل جدائلها على الكتفين يمد يده
يمسك بيدها • تسحبها في خجل ، وتنظر اليه بعينين واسعتين •
لم تكن منطقنة النظرة مترهلة الجسم كما أضحت في السنوات
الثلاث التي سبقت وفاتها الباكرة •

لم يبق سوى مواجهة العدو • وجد نفسه في النهاية وحيدا
ينتظره • ربما جاء اليوم • ربما جاء غدا • • بالليل لا يسقط
زر النور البيضاء من قبضته • في أية لحظة سيحس باقترابه

سيضغط على الزر وستضىء الغرفة • انه لا يريد أن يلتقى به
فى الظلام ، بل فى النور الساطع ، حتى يراه وجها لوجه • • لم
يكن شجاعا فى حياته • هذا صحيح • لم يأت عملا من أعمال
البطولة • لم يلتحق بالجيش • كان وحيد والديه فى سن الجندية
فأصابه الاعفاء • لم ينقذ غريقا من الغرق • ولا أحدا من حريق ،
بل انه أيضا لم يدخل فى معارك مع غريم • • ولكنه أيضا لم يكن
جبانًا متخاذلا • وها هى معركته تقترب • الموت ليس توقف القلب
عن الخفقان ، بل توقف العقل ، وانطفاء الحواس • فليواجه اذن
العدو المجهول المرتقب • انه لن يصرعه • ولا يدعى لنفسه القدرة
على ذلك • فليواجه العدو المتوقع بوضوح وصراحة ، على الأقل •
كل ما يريده هو أن يعرف • فى هذا خلاصه حقا • على الأقل ،
ان يعرف • وبعد ذلك ، يهون كل شئ •

انه آت فلا بد من مواجهته • لم يكن لصفوان آثام كبيرة
حتى يشغل الندم باله كثيرا • كل أيامه الماضية طرحها عن كاهله ،
فرغ لملاحظة حاضره وتأمل ما هو آت عن قريب • طالما لا يمكن
الا يأتى يوما ، طالما لا يعرف كيف يصرعه أو حتى كيف يكون
الهرب منه ، طالما لا يمكن تجنبه أو معاداته ، فلا أقل من التلاقى
معه ، والالتحام به • اذا ما هبت الريح انحنى الشجر الحكيم
لها ، ومضى الرمل وأوراق الخريف مكتسحا فى مهبها • لا يقاوم
العصن فلا ينكسر • لا يرفض الرمل والورق الساقط بل يسضى

طيعا مختارا الى حيثما يحمل ويلقى به • هكذا سيفعل صفوان • •
ولكنه أيضا ليس بغصن شجرة ، ولا حبة رمل ، ولا ورقة ذابلة ،
بل هو انسان ، فاذا جاء الغريم سيمضى معه ، ولكنه سيعمل كل
ما أوتى من حواس وفطنة ، ليفهم ، ويتأمل ، سييسط الشراع
ويسضى معه • وفى كل خطوة سيحاول أن يلمسه ، ويزداد معرفة
به • فهذه هى المنحة التى وهبت للانسان : أن يحاول أن يفهم ،
أن يصر على الفهم ، فالحقيقة لا تأتى اليه كلها واضحة طيعة •

كل ليلة ، يرهف السمع ، ويحقق فى الظلمات قدر امكانه •
متأهبا ، بلا توتر • يلصق ظهره بالحائط ، أو على الأقل ، يجعل
ظهره للحائط قدر المستطاع حتى لا يجىء العدو من الخلف ،
فبإغته ، ولا يتيح له أن ينعم بالفرصة التى أصبحت شغله الشاغل
الآن • وربما تسليته أيضا • فالاستعداد للحظة المرتقبة ، الآتية
ولا ريب ، أصبح يملأ ساعاته • • الذى لا يريد أن يدعه يفلت من
يديه هو استيعاب هذه اللحظة • • هو معاششتها بوعى •
يريد أن يسمع كل ما يمكن أن يسمع ، أن يرى ، أن
يلمس ، أن يشم ، أن يعانق ، أن يلقى بعيون مفتوحة ،
وآذان مرهفة ، أن يستقبل ولا يدفن رأسه فى الرمال •
أن يسأل ويتلقى اجابة : أين ذهب بابنه ؟ ماذا فعل بامرأته ؟
وبالآخرين ؟ لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك • لن يشتت جهده •
لن يبشر وقته بالأسئلة • سيركز اهتمامه كله فى نفسه • لحظة

اللقاء هذه علاقة ثنائية بحث ، ولا تقبل أطرافاً إضافيين ، وليست بحاجة الى شهود • وسيعاينها في صمت مركز •

يدفع كرسيه الخشبي ، ويضعه في ركن الغرفة ، في مواجهة الباب ، والشباك الثقيل عن يمينه • يغوص في مقعده مستريحاً ، عاقدا يديه تحت ذقنه ، مثبتاً عينيه محملاً • ثم يجيل ببصره مدققاً منقياً •• في السجادة على الأرض ، في السقف ، في الحائط ، في الدولاب والمنضدة ، في المرآة ، على الأخص المرآة المستديرة ذات الاطار المذهب • فيها يرى ما وراء ظهره ، حتى لو كان الحائط العاري ، كما كان يرى في تلك المرآة وجهه • تلتقي على صفحتها عيناه بعينيه ، وكثيراً ما تأمل فيها التجاعيد الغائرة على جبينه ووجنتيه الضامرتين ، وحول عنقه • ان المرآة بالنسبة له سلاح فعال في معركته المقبلة ، واداة يعول عليها الكثير في مواجهة تلك اللحظة واستيعابها • يتابع نفسه في المرآة ، فهناك احتمال أن يحط عليه غريمه دون أن يجتاز الحجرة • عندئذ عليه كي يراه أن يرى نفسه وبمتابعة هيئته في المرآة سيتابع اللقاء المرتقب لحظة لحظة • سوف تكون رهبة وفريدة وممتعة •

قد لا يأتي العدو من خارجه • قد لا يفتح نافذة أو يقرع باباً أو يذرع غرماً ، قد يقفز من داخله ، فاذا لم يعمل حساباً حتى لذلك ، فقد تفوت عليه الفرصة •

أعد كل الترتيبات في غرفته ، قاس كل شبر منها ، وأعد

تنسيق كل شيء فيها ، أسقط كل ما علق على الحوائط ويمكن الاختفاء وراءه أو فى ثناياه • اتخذ أنسب المواقع لسريته وكرسیه • وبث فى الأرجاء كل ما يمكن أن يكون أجهزة استقبال وتحذير • أصبحت الغرفة رقعة شطرنج صفت عليها القطع بحساب وروية •• هذه الغرفة الصغيرة المحدودة ستشهد انتصاره الصامت المتواضع الخاص جدا ، المهول •• انتصاره الكبير الأول ، وربما الأخير أيضا •

يفكر فى ذلك • ينظم كل شيء ، دون أن يشرك أحدا فى خطته • يتوخى الكتمان ، كما لو كان يخشى أن يتسرب سره الى عدوه • كان يطلب من أم نوال عندما تجىء لتنظيف الشقة ، مرتين فى الأسبوع ، أن تدفع الكنبه الى جوار الحائط المقابل ، أو ترفع كرسيًا من مكانه ، أو تخرج دولابًا الى الردهة ، أو تحضر من الغرفة الأخرى وسادة أو مشجبا •• ولكن دون أن يقول لها لماذا يفعل ذلك • تتذمر أحيانا اذا تكرر نقل ذات الشيء من مكان الى مكان ، وتضحك أحيانا أخرى ، لكنه كان يلزم الصمت والكتمان فى الأحوال ، فهو يعرف أن السرية لازمة لدحر أى عدو ، فما بالك بعدو من صنف عدوه ، وفى معركة مثل معركته •

لم يرض صفوان للقاءه المرتقب بغير قطة رفيقا • فهو ليس انسانا ثرثارا متخاذلا • وهو حاد السمع ثاقب البصر ، يسمع قبل سواه أى خفيف أو دبة فى البيت ، ويلمح فى الظلمة ما لا يلمحه

غيره • وكم يعجب صفوان به وهو يرفع رقيته من رقاده وتنتصب
اذناه ويحدق بعيدا ، كما لو كان يرى وافدا هناك ، ربما خلف
الحائط أو ربما يصعد السلم ملتصقا بالجدار أو مستترا بالظلال،
ويبقى مشربب العنق متحفزا • • وربما زاد من استعدادة للمواجهة
فأقعى • ويمضى يتشمم الهواء ، فاذا ما وثق ان الوافد الخفى
قد ابتعد ، وزال وجوده من البيت، عاد فتمدد عند قدمي سيده،
وأسند ذقنه الى ساقيه القطيفيتين السوداوين وعاد الى طمأنينته •
وقد اعتبره صفوان أيضا واحدا من أجهزة الاستقبال ، وعول عليه
كثيرا ، فهو فى نقوش الفراغة يمسك برأس الأفعى رمز الظلام •
هاتان العينان المستديرتان الصفراوان الخضراوان المشقوقتان
طوليا تريان ما لا يمكن لامرئ أن يراه • تلك الأذنان المخروطيتان
تتحركان فتلقطان حتى ما لا يسمع من همس أو ديب • ذلك
الخشوم المثلث الشكل الوردى اللون الحساس يتشمم الهواء
فى المنور وبثر السلم • ثم ان تلك الرشاقة وليونة الحركة يجب
أن يعمل لها حساب أيضا فهو فى لمح البصر ويبضع قفزات محكمة
يكون عند الباب اذا مسته يد بأوهى دقة ، أو فى المطبخ اذا وفدت
منه خشخشة — ان ميو واثق من نفسه معتز بقدراته • حارس
وفى هو ، ورفيق يعتمد عليه فى تلك اللحظة التى قد تكون
حافلة •

بعض الناس يفضلون الكلب وينعمون بصحبته فى البيوت

•• لكن صفوان كان أميل الى ميو • فمئذ اليوم الذى قرأ فيه
كيف افترست كلاب الالهة ارتيميس الخمسون راعى الأغنام
المسكين الصبي اكيون ، وكيف مزقته اربا لمجرد انه رأى سيدتها
تستحم عارية فى غدير بين أحضان جبال كيثرون بأرض اليونان ،
وهو يكره الكلاب ويخشأها • يقشعر لتصورها وقد انشبت
مخالبها فى لحمه وغرست انيابها فى بطنه • كيف قفزت على
كتفيه وصم نباحها أذنيه وهو يطوح بذراعيه يمنة ويسرة دفاعا
عن نفسه عبثا • وطالما انه ليس الها ، فلا بد أنه اذا جاءت اللحظة
فإن الكلب قد ينقلب عليه بإشارة من الأمير القادم المخيف ، فيفتك
به ، اما القط فهو ماكر خبيث رابض الجأش لا يلعب به ولا
يشترى بسهولة •

الأمر الذى يقلقه أكثر من غيره هو فجائية الموت • كان
يخشى أن يباغته ، أن يأتى فى لحظة لا يتوقعه فيها ، فلا يكون
مستعدا لملاقاته ، وعندئذ ربما فسدت خططه أو رمل الأقل ، لن
تتاح له الفرصة لمعاينة التجربة كلها بالحضور والتيقظ المرجوين •

ومضى يفكر • تساءل كيف سيأتى ؟ فى أية صورة سيأتى ؟
كضربة على الرأس ، أم كطعنة خنجر ؟ من الأمام ؟ من الخلف ؟
أم كصخرة تهوى من حالق وتذك العظم ؟ أو ربما جاء فى هيئة
وحش ينقض ، أو لعل الأرض تنشق عند موطن القدمين

وتبتلع • أو ربما تطبق على العنق أصابع قوية تضغط وتضغط •
أو حبل ينعقد وينغرس ، يضيق الخناق حتى يزرق الوجه
وتجحف العينان ويتدلى اللسان من الفم • أم انه لا هذا ولا
ذاك • أهو بتر ، أم سحق ، أم اجتثاث ، أم التجراف ، أم
ابتلاع ؟ أم اعصار ، أم ماذا ؟ أهو نار تحرق ، أم برد
يجمد ؟ دفعة الى الوراء وسقوط فى هاوية ؟ أ يكون لها ، أم
شظايا ، أم تينا ، أم سيلا ، أم شللا هادرا وموجا متلاظما ؟ هل
سينقض نسر يخطف روحه ، أم سيفتح بشر يهوى الى قراره ؟
هل سينتصب أمامه سلم يصعد درجاته الى السماء أو يدفع به
نزولا الى جب سحيق رطب تجرى فيه الحشرات والجردان من
حواله ؟ أهو حجر ثقل يجذب الى أسفل ، الى أسفل ؟ أهو مخلب
ينشب فى اللحم ؟ أهو شمس تغرب أم هو يوم يشرق ؟ أهو حوت
يبتلع ، أم أفعى تلذع ؟ أهو دوى يصم الأذان ، أم هو فحيح
يجمد الدم فى الأبدان ؟ أهو موج يغمر ، أم رمل يزحف ؟ أهو جبل
صاعد ، أم جرف هاو ؟ أهو ظلام دامس ، أم ضوء باهر يعشى
البصر • أم هو ضباب يعتم الرؤية ؟ أهو هذا ، أم هو ليس كذلك
أم هو هذا وذاك معا ؟ كل هذا معا ، مهما كان الأمر ، فالأيام تمر
وسيعرف لنفسه وبنفسه ما هو الموت حقا • أهو هكل عظمى
يمسك سيفاً أو رمحاً ، أم هو قريب حبيب ممن سبقوه الى الهوة ؟

وجه عمته مريم النبيل ، وقامتها الفارعة ، وابتسامتها الحنون
مثلا ؟ ربت على رأس قطه الراقد فى حجره ، فهو يعرف كل
شق فى الحوائط ، وكل حجر • يعرف كل ما خفى عن العيان
ودق ، لهذا فهو يطمئن اليه ويثق به •

انه ابن هذه الأرض العتيد • • • ميو • • هذا اسمه منذ قديم
• • فقد استؤنس منذ الأسرة الحادية عشرة • • ومن مصر انتقل
عبر اليونان الى أوربا • • فهو اذن ابن بلد حقيقى • • لقبت النساء
باسمه ولبسن فراه • • من أجل هذا الفراء كان يصاد فى البرارى
التى عاش فيها • وفى مقابر البدارى وجدت بقايا الجثث ملفوفة
بفرائه الثمين •

انه يصاحب سيده الى دورة المياه وفى جولاته الداخلية
المحدودة • يرقد تحت مقعده اذا جلس • • يبسط مخالبه ويخمش
بها رجل الكرسى أو طرف عباءة سيده • ثم يقفز الى حجره طلبا
للملاطفة • وقد كان للحكيم كوتفوشىوس ، على ما يبدو ، أيضا
قط مثل ميو •

قل نوم صفوان • صار اغفائة • يستيقظ بعدها متنبه
الحواس مفتوح العينين يقظ الجوارح ، مترقبا ، كما لو لم يكن
قد نام قط • يقول لنفسه : النوم عادة فى أغلب الأحيان ويمكن
مقاومتها والتغلب عليها ، فالجسد لا يحتاج الا الى كفايته ، أو الى
أقل من كفايته بقليل • اذا داعب الكرى جفنيه قاومه • واذا ثقلا

رفض أن يطبقهما • انها جولته الأخيرة ، ولئن كان قد خسر كل جولاته السابقة ، فانه تكفيه هذه الجولة الحاسمة ، لو ربحها لسربح كل شيء ، كل شيء • لا يهم • كل ما فات لا يهم • كل ما ضاع يسترد بضربة واحدة • كل ما راح من اليد يعود ، ويعود اضعاافا مضاعفة • وما دام قد حقق انتصاره هنا ، فى هذا الركن الهادىء الصغير على مشارف الصحراء فقد حققه اينما كان فى هذا الوجود •• فى بعض اللحظات يهزمه سلطان النوم تماما ، لكن عزاءه فى تلك اللحظات أن قطه الأمين قابع عند قدميه ، على أهبة الاستعداد لا يقاظه بموائه ، اذ لاحت بادرة على اقتراب العدو ، وعندئذ سوف يهب متسع الحدقتين ، متيقظ الحواس كلها •

كانت جدته تخاف البقاء وحدها فى البيت ، لا لأنها كانت جبانة متخاذلة ، فهذه الريفية الخشنة ابنة الأرض والطبيعة العارمة ، وقد مرت فى حياتها السابقة بكثير من الشدائد رابطة الجأش • لكنها كانت — دون أن تقول — تخشى البقاء وحدها فى البيت عندما كبرت وتقدم بها العمر ، فقد كانت تتفادى الالتقاء باللامسمى دون أن يكون ثمة من هوالى جوارها • لهذا كانت ، عندما تنأهب ابنتها وزوجها للخروج ، أول من يرتدى ثيابه ، وتنتظرهما فى الصالة متأبطة حقيية يدها السوداء بجوار الباب ،

حتى تخرج معها ، وتخطو الى عتبة الباب قبلهما ، كي لا تبقى وحيدة بين جدران البيت التي قد تحتويها مع المجهول •

عندما يفكر صفوان في حياته ويستعيد أيامه ينتابه احساس بأنه انما كان يصطاد في بحر لا سمك فيه •• كان يلقي بسنارته وقد سمن فيها الطعم •• وعندما يخرجها لم يكن بها سمك •• ولكن أيضا لم يكن للطعم وجود •• كان يذوب •• كان يتبدد •• يتلاشى •• دون أن يصل الى شيء •• ولم يكن هذا الطعم بالأمر الهين •• بل كان يكلفه أيامه كلها •• وهل كان لديه غيرها ؟ واذا استغرق في تأملاته استبد به تساؤل لم يكن يجد له اجابة شافية •• كانت البوادر كلها توحى لحظة بعد لحظة بأن ذاك البحر مليء بالسمك •• كانت الفقاعات الصاعدة من جوف اللجة تومئ الى أن ثمة ما يتنفس هناك تحت السطح •• ولكن دائما كانت السنارة تخرج الى الهواء تهتز وتتأرجح خالية حتى من الطعم •• الذي ضاع •• كل مرة كان الطعم يضيع •• لكن هناك في أعماق الصدر •• في مكان ما تحت الضلوع •• هاتفا لايهدأ •• وسيمد يده ويمسك بها ويشعر باقتفاضتها في قبضته ثم يقتلع الشص من فمها برفق قدر الامكان •• ليضعها في السلة •• وستلوها •• سمكة •• واخرى واخرى •• تلمع •• وتتلوى •• ، ثم تمتلئ بها السلة • لم يكن يالو جهدا في الحصول على أفضل طعم •• حتى يكون حظه في الغد أفضل •• ولم يكن يتردد في الخروج

مهما كان الجو باردا والفجر لم يكن قد زحف على الوجود النائم
بعد .. ذات مرة .. مرة واحدة فحسب ... أخرجت سنارته
سمكة صغيرة منتفخة سمراء مختلطة بخضرة قاتمة ربما من كثرة
احتكاكها بطحالب القاع .. فرح بها برهة .. لكن الى جواره
كان يقف صبي ربما كان ابنا لأحد الصيادين . قال له : « ياه ،
انها جعيرة .. لا فائدة منها ... الأفضل ان ترميها من حيث
طلعت .. » قلبها ودققت النظر فيها .. واستوقفناه على الأخص
عينها الجاحظتان .. لا يدري لماذا صدق ذلك الصبي .. فطوح
بالجعيرة بعيدا الى البحر من جديد .

« تعبنا طوال الليل ولم نصطد شيئا » كان هذا هو الماضي
.. ما وراءه .. لكن كل هذا ما عاد يعنيه الآن .. انه ينتظر
اللحظة الحاسمة .. الصيد الكبير .. وأى صيد أكبر من اثبات
ذاته .. انه سيفوق كل الآخرين الذين كانت حياتهم مكاسب
وانتصارات .. لأنه .. لأنه ماذا ؟ هل حقا .. سيلتقى به ..
ويقتنصه ، قبل أن يغرق قاربه .. ويغوص الى القاع المظلم ؟
ذلك القاع المظلم لا يعنيه .. سواء كان قاعا أو لم يكن .. مظلم
أو مضيئا .. ما بعد تلك اللحظة هو خارج حساباته وتوقعاته ..
عندما تتوقف الحواس .. بعد أن تتوقف الحواس .. لا يعنيه
الأمر .. فهو يعرف انه عندئذ قد انتقل الى نطاق المستحيل ..
أما تلك اللحظة المرتقبة .. فهي لا زالت في حيز الممكن .. صحيح

انه الممكن صعب المنال .. ولكن على أى حال .. لا يعتقد انه
متعذر المنال .. وانما يعتقد ان الأمر لا يحتاج الا الى احسان
استخدام تلك الحواس .. رباطة الجأش .. التحديق فى الوجه
مباشرة وعدم الاشاحة مهما كان الأمر .. ولا شىء غير ذلك ..
انه يكاد يعرف انه ليس له سوى هذه اللحظات .. وعلى الأخص
اللحظة الأخيرة يجب أن تكون له كلها .. كلها له .

كلما سأل صفوان عن الأمر فى شبابه ، قيل له ليس فى
مقدورك ، ولا فى مقدور أحد أن يعرف . كان لا يرتضى هذه
الاجابة ، ولا يقنع بها ، بل يتمرد عليها كثيرا . يشد من أزر كل
نبأ تطلع به الصحف عن تقدم علمى أو اماطة اللثام عن خبيثة من
خبايا الطبيعة . فكان يحدث نفسه قائلا « ما من خلاص للانسان
سوى العلم » ثم يقول لنفسه متحسرا « لكننى لست من العلماء
فى شىء » . ثم يستطرد قائلا لنفسه أيضا — فقد كان يخجل من
أن يجاهز غيره بذلك — « ولكن من هو العالم الحقيقى ؟ أهو من
حشا عقله بالكثير من المعلومات ؟ أهو من حصل على الشهادات
تلو الشهادة ؟ كلا ، انه من يرفض ما ليس عليه اثبات ، ويضبط
سلوكه على الملاحظة ، والتأمل ، فلماذا لا يكون عالما بالروح .
ما دام ليس عالما بالفعل ؟ » العلم تجربة انسانية يواجه صاحبها
ما فى الوجود من غموض ليفضه ، لا يأخذ شيئا على علاقته
وبشغف يعاق حتى عدوه . وهو اذ يفعل لا يسأل ما الجدوى من

أن يعرف • انه يعرف لذات المعرفة فحسب • كان يقول لنفسه
مشجعا « الآن ، هناك ، عاليا ، عاليا ، ربما كان رائدا يجوب
الفضاء ، يطوف النجوم ، بلا وجل أو تردد ، فلماذا لا يشاركه
المغامرة ، من كرسيه هذا ، ومن خرفته ؟ » ثم يتسم ويقول لنفسه
« البعض يموت على خشبة المسرح ، والبعض يموت فى مقاعد
المتفرجين » •

كانوا يقولون له الحواس عقبة ، والحكمة والحقيقة
والكرامة الانسانية انما تتأتى من تعدى الحواس ، من قهرها وعدم
الخضوع لسلطانها • كان يقول لنفسه « بل بالحواس ندرك
المللوس • • وغير المللوس أيضا » فالأطياف مثلا بعض الناس
يعاينها ومن الناس من يلتقط الهواتف أيضا • والصواب ان
الحواس بحاجة الى أن تدرب فاذا ما بلغت أقصى درجات
التدريب فانها تستحوذ على الكثير مما يغيب عن الآخرين •
وبالتركيز والاستغراق ، بالخضوع للحواس والغوص فيها حتى
الأعماق ، تتحقق المعجزات الصغيرة ، تلك التى يسميها البعض
استخفافا بالمصادفات أو الخدع الصغيرة • وليس التعرف على كنه
الموت بالمعجزة المستحيلة لأنه تجربة مألوفة وفى متناول اليد
كل يوم ، لكن ما فى الأمر ان الاصابع بدلا من أن تطبق عليه
ترتخى وتدع الحقيقة الباهرة تفلت مثل حفنة من الرمال •

تلك اللحظة سيستحوذ عليها ، ستكون له ، له وحده ،

سيقتنصها كلها بحواسه • حقا ، هو يعرف انه عندما ستنتفيء حواسه ، عندما سيطبق عدوه ويشدد قبضته على عنقه لن يكون حتى لحواسه وجود ، بل سيكون وجوده الماضى كأنه لم يوجد قط • فبعد ذلك تأتى الغيبوبة الطويلة الأبدية ، ولا يأمل أن تتيح له تلك الغيبوبة أن يعرف شيئا • انما الفرصة الوحيدة العزيزة الغالية ، فرصته هى تلك اللحظة الانتقالية بين الحياة واللا حياة • • هو لا يعول الا على لحظة الانتقال • • قبل أن ينهمر الطين ويهال التراب ويطمس كل شيء • • ان الشيء المؤكد بالنسبة له • • الشيء الذى يتوق اليه • • لا كمجرد أمنية بل كهدف يسعى اليه ، هو أن يقتنص فى لحظة حواسه الأخيرة — يقتنص غريمه ، يمسك بتلابيه ، ويطوقه بذراعيه ، حتى لا يفلت منه • • يريد أن يعيش التجربة الى آخر رمق • • وستكون هذه معرفته القصوى والأخيرة • • التى ستجعل لكل حياته الخاوية معنى ومضمونا • • انه يمضى مثل دودة القز الى الشرقة • • ينسج خيوطها حوله عن طيب خاطر • • حتى تغطيه ، وتعزله ، وتكتم أنفاسه • وهو الآن انما يفرز الخيوط من حوله • • لتتعلق عليه • • ويجتمع بغريمه — بغريمه المتلهف اليه — داخل الشرقة • • انه ينتظره لحظة تسلمه وهو له بالمرصاد • • وربما كان كل حماسه للحياة فى هذه اللحظات لا للحياة ذاتها ، بل للمتعة الكبرى ، للكشف الأكبر ، للمغامرة الكبرى • • للفوز بما لم يفز به غيره • • ربما • • بل وما الذى

يعنيه غيره فى هذا المقام ؟ لا يريد صفوان سوى التجربة
المباشرة .. اليقين .. ولا يقنع بغير ذلك بديلا .. مهما كلفه الأمر
من ثمن .. وأى ثمن يضاهى لحظة التنوير العظيمة الموهلة ، لحظة
أن يعرف بنفسه ولنفسه ، الى ما تسير الحياة ؟ ان العمل فى
الواقع كثير والفاعل مستحق أجرته .. عديدون غيره من الجهابذة
أفنوا الساعات الطوال فى حذق النظريات البليغة والافتراضات
حول هذه اللحظة ، لكنهم داروا حول تلك اللحظة فحسب ، من
الخارج دائما ، سطحيون دائما ، أما هو فربما .. مثل دودة القز
.. ربما .. من يدرى .. ؟ من يدرى ؟ هو بالقطع يدرى ،
فالمستقبل من صنع تطلعات الحاضر الطموح المتأججة بالحماس ،
وما من أحد يتأجج حماسا مثله . ويمكنه أن يقول لذلك بأنه
أكثر تدينا من كل أولئك المتدينين الذين يطمعون فى ثواب
الآخرة ، أو يدرأون عن أنفسهم عذابها فحسب . انه لا يخشى
شيئا ، لا يطمع فى شيء ، انه حر .

أبعد الأمور عن الظن قد تكون أقربها الى الوقوع . صدئت
المفاصل فلم يسرع صفوان الى تزييتها ، أصبح يعول كثيرا على
صرير الباب اذا ما فتح ، فهذا الصوت فى هدأة الليل كفى بالتنبيه
الى أى وافد غريب ، متلصصا جاء أو متسترا تحت جناح الظلام .
سيضغط صفوان عندئذ على زر النور ، فتضىء الغرفة بالنور
الساطع ، ويرى الصديق المنتظر وجها لوجه . وفى الضوء الباهر

الذى يهتك الأسرار ويفضح الغوامض والخفايا ، كان موقنا انه سينال مأربه ، ويتوصل الى ما لم يتوصل اليه انسان آخر من قبل . ويا له من فتح أو اكتشاف سيكون هذا ! أعظم الأسرار سيفضه ، حتى لو احتفظ به لنفسه ، فسيكون ذلك النصر قمة حياته ، والغرض الأصلي من وجوده واستمراره . انها لعبة تستحق كل ما يكرس لها من فكر وانتباه ، ويقصى عن كاهله فى سبيلها كل انشغالات أخرى .

ولأنه لا يريد التجربة الا لنفسه ، لا يريد لها الا فى ملائمتها وكل حرارتها ، فهو لا يمسك ورقا ولا قلما . . بل يهوى وجدانه وذنه بل وحواسه على الأخص ، للاستقبال والتلقى . . لا يدون شيئا . . يريد أن يرشف الكأس حتى الثمالة ، ثم فليقع بعد ذلك على الأرض ويتكسر . ليضح الوجود حطاما . وليتطاير ذرات ذرات . . فلن يعنيه من الظواهر شيئا . . سيصبح أثرا بعد عين . . فليصبح . وماذا يعنيه ذلك ؟ ألن يكون محورا ، قطبا ، جسما موصلا . . وسيطا . . نجما ؟

سمع ان بعض الجامعات الأجنبية أخذت تهتم برصد الظواهر العابرة والظواهر غير المبررة وغير المفهومة ، تمهيدا للتوصل الى القواعد التى تحكمها . . مجرد احتمال ضعيف أن يكون للمصادفة البحت ، مثل توارد الخواطر ، قانون يضبطها . . يتوق ان يعنل باحدى هذه الجامعات فى قسم من الأقسام المكرسة لاستقصاء

هذه المصادفات والاحتمالات • وإذا كان غير حاصل على درجات
جامعية فى مثل هذه الأمور ، الا أن الاسهام فيها لا يحتاج فى
نظره الى شهادة بل الى حدس من نوع معين ، وارهاف للحواس،
صبر لا حدود له فى انتظار اللحظة المواتية •• ان الوهج البراق
يلمع فى لمح البصر ، وينطفىء أيضا فى لمح البصر لا تلتقطه سوى
عدسات انسان من نوع خاص ، وهو انسان من هذا النوع ، وقد
مضى يدرب نفسه لمثل هذه المهام • ولم يبق الا انتظار الضيف
المفضل • وهو لن يتأخر الآن

ثمة صوت يهمس الى صفوان بأن ما يجرى من حوله لا يمكن
أن يكون نهاية بذاتها ولذاتها ، كل هذه التجهيزات انما هى فى
الحقيقة لبداية الرحلة •• ربما خلال ضباب كثيف •• ان النهاية
التي تعطى لكل شىء منطقاً ومعنى ، تقترب •• تكاد تلوح له ••
عندما كان صبيا كان يمد يده فى زكية بائع البخت الواقف عند
باب مدرسة العطارين الابتدائية • أصابعه تسعى فى الفراغ المظلم
داخل الجعبة متلهفة متخبطة بحثا عن ورقة مطوية •• لا يعرف
ماذا بداخلها • ربما غويشة ، ملبسة ، مبرة ، أو غير ذلك من
أشياء تافهة •• لكن أصابعه بل ووجوده كله ، يسعى أيضا هذه
المرّة باحثا عن ورقة مطوية ، لن يكون ما بداخلها شيئا تافها ، أو
هكذا لا بد أن يكون الأمر، بل انه شىء خطير مطوى عليه •• هو

السر الذى سيضع كل الحقائق الجزئية فى نصابها الصحيح ..
هو الطلسم الذى يضبط ايقاع كل شىء •

هل التقى صفوان بالموت قبل ذلك ؟ يذكر عندما كان
صغيرا .. فى العاشرة من عمره .. كاد يغرق فى النيل يوم شم
النسيم .. كان يلعب على الحافة الطينية .. رأى على مبعدة فى
الماء اباه وصحبة من رفاقه .. خطأ بضع خطوات .. وبعد ذلك
وجد نفسه يهبط فى اللجة .. يهبط .. الألوان من حوله سهام
متوحشة .. لم يحس بالخوف آنذاك .. بل اتابه استسلام
مهول .. وهو يغوص .. يغوص .. الى القاع .. ولكنه فى
الحقيقة انما كان فى طريقه الى الالتقاء بلحظة الموت الحاسمة ،
انه كان يقترب منها فحسب .. واذا بيد قوية تنتزعه من شعره
وترفعه الى أعلى .. وتخرجه من الماء .. ولم تكن أنفاسه قد
اختنقت .. ولم يكن قد بدأ يضيق عليه الخناق عذاب الغرق ،
ويقال انه أصعب أنواع الموت •

جال صفوان ببصره فى أرجاء غرفته يستعرض استعداداته
واستحكاماته ويطمئن الى كمائنه ومصائده وأجهزة انذاره
وتنبيهه الى كل همسة مهما خفتت والى كل خطوة مهما خف
وقعها • ثم مال يربت على ظهر قطه الوفى الحريص .. بدائية
هى استحكاماته ومصايدہ ؟ صحيح هذا ، ولكن يجب أن نحارب
بكل سلاح .. فقد لا يصلح مدفع رشاش بين يدي جنسدى

غشيم فى قتل العدو ، بينما يكفى لذلك خنجر مسنون أحسن استعماله ، فالإنسان لا يحارب بأمضى الأسلحة لزاما ، بل بما بين يديه من أسلحة ولو كانت أقل كفاءة مما يرجوه . وسيستفيد صفوان بكل امكانات سلاحه المتواضع . وهو موقن بأنه ليس متواضعا ، بل انه صالح كثيرا لالتقاط المصادفة . . ها هو جهاز التسجيل ، ها هو مكبر الصوت ، ها هى أضرار الاضائة .

ثم جاءت الساعات الصعبة . ثقلت الأنفاس ، وأصبحت أكثر عناء . الدماغ خاوية ، والدوار يقفز الى الرأس بمجرد الوقوف على القدمين . صار الاستناد الى العصا ضروريا الآن ، والسير على ثلاث حال كل يوم . والنبضات تسرع ويصحبها اللهاث . تضع أم نوال خلف ظهره وسائد كثيرة حتى يسهل عليه التنفس . كره السرير . لاذ بكرسيه . يمضى الليل مسمر العينين على زجاج النافذة . يترك الشيش مفتوحا حتى ينسكب الى الغرفة ضوء الفجر ما أن تبرزغ الشمس كل صباح . أما الزجاج فمحكم الاغلاق على الدوام حتى لا تتسرب الرطوبة الى المفاصل الموجوعة . لم يعد الرجل العجوز يفتح فمه . وانصرف بكل جوارحه للوافد المنتظر . وكلما تضاءلت قواه كلما زادت يقظته وانتباهه الى ما حوله . كما زادت الفتة بالصديق المرتقب أيضا . تمنى فقط أن تكون حواسه كما كانت فيما مضى ، عندما كان يرتقى شوارع كوم الدكة الصاعدة الهابطة ويمشى على قدميه فى اصباحة

الشتاء المشمسة من محرم بك الى سيدى جابر متلقيا هواء
البحر على وجهه ورثتيه • من هو الحكيم الذى بدأ حياته حيث
تنتهى حياة الآخرين ، الذى ولد أشيب الشعر •• عجوزا •• من
ذلك الحكيم ؟ من هو ؟! ما عاد يذكر •• كل شىء انطفأ ••
شعر كما لو كان ممسكا به بين فكى كماشة فولاذية ، فلا يستطيع
حراكا •• للمرة الأخيرة ، يريد أن يصمد •• يرفع جذعه الآن
بعناء ينجح فى الوقوف على ساقيه بصعوبة بالغة وفى السير
خطوة أو خطوتين ، وكذلك ذراعااه يحركهما بمشقة ، كل شىء
بمشقة • شىء واحد لم ينطفىء •• اليقين بلحظة اللقاء •
لماذا لم يمت قبل ذلك عندما كان وعيه أصفى وأشد ؟
أهذه من الأعيب الصديق اللدود أيضا ؟ أن يضعفك ، حتى اذا
ما جاءك وجدك وقد غلبك التعب وهدك ، فلا تكون بقادر أن
تتنبه اليه ؟ هل يأتى كلص فى جنح الليل ، متسللا ؟ يعيد
العجوز التأمل فى الأمر تبعا للظروف التى يجد نفسه قد انجرف
اليها ، لكن الشىء الذى لا يتزعزع هو الرغبة العارمة فى أعماقه
أن يصمد •• عارفا ان الصديق الوافد المنتظر هو الذى يطرد عن
الحياة كل ما تكتسى به من عبث وسخف •• انه اذن صديق حقا
•• ولا يجب أن يقابل باستكانة وبلادة • على أنه يجب أيضا
الا يبلغ بالمرء الغباء مبلغا فينخدع أو يخدع نفسه به •• ربما كان
الشىء الوحيد الذى يجب أن يقابل به •• الشىء الوحيد الذى

لا يجده فينا غالبا .. كبرياء يتشبث بها .. ان ننظر اليه بعيون مفتوحة .. مهما كان منظره بشعا قاتما .. ولكن من يدري ما مظهره .. طالما نفضل ان نغمض العيون ونصم الآذان .. ونكسر على الأسنان ؟ لا يموت الانسان بالصراخ والهلع فحسب ، بل بالبشاشة والتفتح أيضا يمكن أن يسوت .. الأمر يجب أن يحمل محمل الجد .. وقد كان هو جادا مهموما كل أيامه السابقة .. فما كان يعتقد أن كل ما يجري من حوله سريعا كدوامه . بطيئا راكدا كاستنقع خاتمة المطاف ..

حاول أن يرفع يده ، أن يحرك ساقه ، أن ينهض .. أن يعلو صوته بالصياح .. لم يبق له شيء .. انكمش الوجود كله .. وتضاءل حتى صار بذرة .. بقعة صغيرة من الضوء الباهت على السقف . ما عاد يرى شيئا آخر .. تسمر يحدق في تلك البقعة من الضوء على السقف .. حتى لمعت عيناه . ما عادتا تطرفان . صارتا كقطعتين من الزجاج البارد جاحظتين في مقلتيه .. دبّت البرودة ، سرت في كل شيء .. الوجود يفرق .. يفرق .

لم يدق الباب سائل عن العجوز الوحيد .. لم تمتد يد تسدل الجفنين على العينين المحملقتين في السقف بثبات .. اللتين ظلتا تحملقان في السقف بثبات أياما وأيام . وحتى ميو لم يتلق من سيده الحبيب اجابة على موائه المتكرر في استجداء .. لم تربت يد على ظهره ورأسه . لم يداعب اذنيه أو يحك ذقنه أحده ..

خلا الصحن من اللبن •• ونضب الماء فى الآنية وفى الحوض أيضا
•• ولم يعد فى البيت المهجور ما يشبع لدغات الجوع فى البطن
الضامر المكسو بالفراء الأسود اللامع • جال الحيوان الأليف حول
سيده الراقد مستفسرا • تمسح فى قدميه تحت الغطاء ، بل فى
جسده كله • لعق جيئه وخديه •• فلم تستجب الجثة المسجاة
لتوسلات المخلوق الأليف الذى مضت عضات الجوع تنهش
أحشاءه • جال القط فى أرجاء الشقة عله يجد منفذا يفلت منه
الى الخارج •• خبش باب القبر بمخالبه •• قفز الى النوافذ ••
كل المنافذ مسدودة •• زاد مواءه عذابا •• القبر محكم الأطباق
عليه •• عاد الى سيده يتشممه ويتشممه •• يتعد عنه ثم يعود
فيقترب •

كان ابن أم نوال قد استدعى للخدمة العسكرية فشغلت
به وانشغلت عن مخدومها أياما • صعدت السلم وطرقت الباب ••
لم يجيبها من الداخل أحد • زادت الطرق دون اجابة •• توجست
خيفة وأخذ الشك يأكلها • نادى على سيدها ولا اجابة •• دعت
أن يفتح •• سأله ما به •• لا اجابة •• التفتت تطرق باب الشقة
المجاورة •• رأت التراب المتراكم عليها •• تذكرت أن المدرس
وأسرته رحلوا الى الكويت فى اعارة •• هرولت نازلة الى الدور
السفلى •• عادت ومعها بعض الجيران •• عاودوا الدق •• ثم

تحفزوا لكسر باب الشقة •• فقد تيقنوا أن العجوز قد أصابه
مكروه ••

انكسر الباب •• اندفعت أم نوال الى الغرفة •• القط
الحبيب •• تقوس ظهره •• ونقر شعره •• واندس ذيله بين
ساقيه الخلفتين •• كشر عن أنيابه •• اندفع يموء مواء شرسا ••
كأنه يدافع عن سيده •• يحذر من الاقتراب أو المساس به ••
انه سيده هو ، وصاحبه هو وحده •• استطاعت العيون أن تفلت
من سحر العينين الصفراوين المستديرتين وتنحرف •• جثة صفوان
منهوشة البطن والعنق •• انطلقت الصرخات والصيحات ••
خطفت النسوة صغارهن فى أحضانهن ، ولذن بالفرار •• التصقت
أم نوال بالحائط تغالب الدوار •• وقد امتلأت نظراتها بالرعب
لمرأى سيدها والقط الذى أصابه السعار وسال من أنيابه اللعاب
•• لم تستطع المرأة أن تذرف دمعة وداع على سيدها ، ولا حتى
أن تنديه بكلمة طيبة • جف حلقها ، بح صوتها ، ونضبت مقلتاها •
رائحة الجيفة أصابتها بالغثيان • رمقها القط الحبيب بنظرات عدوانية
ضارية لم تخل من الخوف والتوجس •• عيناه مثل أبركانين ملتهبين
بنار مستعرة فى أحشائه •• ثم مرق بجوارها الى الباب خارجا ••
كان ضخما مثل جبل أسود غطت تربته شجيرات حسك وشوك
متشابكة الأغصان •• وبخطوات خرساء متلاحقة مضى ينزل
درجات السلم • وما ان اختفى من أمامها عجزه وساقاه الخلفتان

وذيله الذى بدأ كعصا سوداء غرست فيها مسامير مدببة غزيرة ..
حتى هرولت بدورها خارجة ، تبحث عن أول شرطى تبلغ ان
سيدها مات .. انسانا مات .. حدث صغير واجراءات .. تاركة
وراءها الغرفة على ما هى عليه ، غارقة فى الصمت والظلال
المنعكسة على قسّات صفوان التى تشوهت .

المجلد الآخر

* بدأ الأمر بمجرد فضول عادى ، مشوب بقدر من عدم الاكتراث . ثم زال عدم الاكتراث ، ودب فى فضولى لهفة ، ورغبة حارقة فى المعرفة ، مثلما تستهويك كلمات متقاطعة أو « فزورة » تسمعها ببساطة أول الأمر ، ثم تملأ عليك ساعاتك ، بل ربما حياتك كلها : ما هو الحيوان الذى يمشى فى الفجر على أربع ، وفى الظهيرة على اثنتين ، ثم فى المساء على ثلاث ؟ .. شئ من هذا القبيل ، ولا شك . بعد ذلك تحول فضولى الى اهتمام حقيقى ، كأن شأنه هو شأنى . كل خصوصياته أصبحت خصوصياتى . اذ ما شرعت أظافره تحك فهو جلدى الذى تحك . واذا تشاءب فهما فكاي اللذان ينفرجان وأسنانى هى التى تبدو صفراء . أما لسانه فقد تراكت عليه طبقة بيضاء من لعابى أنا . فضول ، ثم اهتمام ، ثم انشغال وجزع . بل وعناد أيضا كى أعرف وأطمئن ، وكلما عرفت انجرفت الى مزيد من القلق . ماذا

سوف يحدث ؟ ماذا لو رحل ، أو مرض ، أو مات ؟! هل سيحدث
لى ما حدث له ؟ أمصيره هو مصيرى ؟

مع الوقت ازداد التصاقى بالحائط ، فازدادت حصيلتى من
الأسرار والتفسيرات ، كلها فروض واحتمالات • لا شىء محقق ،
مادامت غلالة الأسمت هذه موجودة •

ولكن هو بدوره من وراء الحائط الحجرى ، لا شك ،
يسمعنى • أعتقد انه ينصت باهتمام الى أشجائى وهمومى ، الى
مأساتى • ألسنا فى حجرة واحدة ، وماضى هو حاضره ، وحاضرى
هو مستقبله ؟!

غرفة واحدة كبيرة ، قسمت قسمين • هذا مؤكد ، فلا يمكن
أن يكون الأمر غير ذلك • وكيف يمكن أن يكون ، وأنا أعاين
هذا الامتداد ، وهذا التكرار والتتابع ، وتقد الى الاصداء التى
تتردد هناك ، هناك فى الغرفة المجاورة ، فى الغرفة الملاصقة
التي لا أراها ؟ ربما كنت قد رأيتهما يوما ، أكاد أجزم : لولا هذه
العشاوة التى تغيم على بصيرتى ، ذلك الضباب الذى يعتم
دخيلتى — أكاد أجزم بكل قطعة أثاث فى تلك الغرفة ، وكل رسم
على حوائطها ، وكل ركن من أركانها • أكاد أتخيل كل حركة فى
تلك الغرفة • وأسمع ، أسمع • هذا مؤكد ، أنى أسمع • وهل
أستطيع أن أكذب أذننى ؟ هل يجرؤ أحد أن يكذب أذننى ؟ انى
على استعداد أن أقتله — كما قتلت من قبل — فهذا هو يقينى

الوحيد ، ايمانى الذى أحيا به • أحيا ؟ لست دقيقا فى كلماتى •
اللغة لا تسعفنى ، فالواقع شئ ، وما يجرى على اللسان شئ
آخر • اللسان أول ما تأكله ديدان الموت • بلسانى ماعدت
أتكلم • لكنى أحاول أن أكون قدر الامكان دقيقا ، صادقا بقدر
ما هو مقدور عليه من الصدق • وهل يمكن أن يكون الكلام
صدقا ، بينما لا يبين من الحقيقة الا النصف أو أقل ؟ أجل الصوت
ايمانى الوحيد ، يقينى الوحيد ، حقيقتى الوحيدة • انى أسمع
فى صمت هذا الوجود كل همسة • كل تنهيدة ، وكل زفرة ، فى
تلك الغرفة المشثومة الحبيبة ، فى متناول سمعى ، كأننى أنا الذى
زفرت ، كأننى أنا الذى تنهدت ، كأننى أنا الذى يرزح على
صدرى حجر ضخمة ، كأننى أنا الذى فى الغرفة الملاصقة ، التى
يفصلها عن غرفتى هذا الحائط الأصم الصامت المتحدى الذى
يمور بالهمهمات والأسرار • وقفت أمامه ، وقبضتى مقبضتين •
مضيت أدق عليه دقا خفيفا ، هنا وهناك ، مصغيا الى اصداء
دقاتى لأتبين سمك ذلك الجدار • وكم كان رقيقا ! لم يكن
حائطا • ستار هو ، بارافان ، زایلنى الاحساس بالوحدة • اننى
لست بعيدا عن الساكن خلف ذلك الجدار •

الليلة الخامسة ، سمعت وقع خطوات هناك • اذن ، ثمة
انسان الى جوارى ، حى !! اقتربت من الحائط قدر الامكان •
ألصقت صدغى به • أحسست أنفاسى على السطح البارد •

مضيت أنصت ، وقد استبدت بى الدهشة والارتباك • دغدغتنى
لهفة مشوبة بالفرحة والخوف • ترى من هناك ؟ أكنت قد أخطأت ؟
ألم تخنى أذناى ؟ الخطوات تسمع بوضوح • فى صدرى •
اندست قبضة حنون قاسية اعتصرت ما كان يوما قلبى •

لم أستطع الرقاد الليلة • كنت أستيقظ من وقت الى آخر •
أنهض ، وأرهف السمع ، فى الظلمة ، أتلصص الوجود الانسانى
بجانبى • أخوض مستنقعا من الصمت راكدا • ينهال السكون
على كل شىء • ديب خطواته ، أين ؟ الصمت على الرغم منى
يطمر كل شىء •

فتحت ألبوم الصور • كنت أسأل البواب ، وأشير الى
الغرفة المجاورة • قال البواب « تسأل عن جارك الجديد ؟ »
ابتسامة خبيثة ، ولا اجابة • ثم استدرك يقول « مثلك ، مقطوع
من شجرة » أدقق النظر فى الألبوم • أصعد السلم عدوا الى
حجرتى • جرجرت ساقى ، والتصقت بالحائط • مالبت أن افتح
باب فى الغرفة المجاورة — اذن ، لها باب — ثم أغلق • دقت
ساعة حجرية هناك بعيدا ، فى مكان ما ، بالخارج المظلم البارد •
الساعة الثامنة • • زمن ! وما جدواه ، هنا ؟ أصبحت أعرف
ميعاد عودته فى المساء ، أو ما يخيل الى أنه المساء ، فقد أصبح
لى مسائى وصباحى الخاصين بى • وهما من صنع أذنى ، الآن •
الباب يفتح ثم يقفل فى الصباح ، ويخيم السكون • ثم الباب

يفتح ويقفل فى المساء • ثم تدق الساعة النائية فى الخرائب
المهجورة • أصبحت أتكوم بجوار الحائط كل مساء ، عند
سفحه أنتظر ، أنتظر عودته ، من أين ؟

ما من خطوات هناك سوى خطواته • هل لى أن أستنتج
منها بعض الاستنتاجات ؟ هو وديع ، يتحاشى الجلبة • لولا تلك
الخطوات الثقيلة لقلت ان الغرفة خالية • الخطوات راسخة ،
ذات ايقاعات رتيبة وئيدة • يبدو انه من ذلك الصنف الذى يعرف
كيف يتخذ قرارا ، ويمضى فيه ، بلا توان أو ندم • بعد فترة
وددت أن أتعرف اليه ، أن ألتقى به ، أن أراه ، لكن كيف يتأتى
لى ذلك وقد حوطونى بكل هذه الأسوار ؟ كم يتوق المرء الى
مالا يطوله !

نظرت الى الألبوم ، أسير جيئة وذهابا أمام العمارة ها هو
رجل ، نحيل ، طويل ، نظراته ساهمة غير مكترثة • على شفتيه
انطبعت التواءة طفيفة • اختفت هيئته فى العتمة • كانت انحناءة
كتفيه تشبه انحناءة كتفى تماما • وصل كل منا الى باب حجرته •
بابان متقاربان لا يفصل بينهما سوى مترين • دخل كل منا وأغلق
خلفه الباب • دلفنا الى غرفتينا اللتين يفصلهما حاجز رقيق من
الأسمنت •

بعد قليل ، على الرغم من اننى كنت موثقا بأربطتى وأقمطتى ،
سمعته يتحرك مثلما حدث فى المرات الأخرى خلف الجدار ، لكن

فى خيالى ارتسمت قسماته ، كما لمحتها وهو واقف تحت مصباح
النور • وجه كاب ، سحنة متجهمة ، وكم كنت أحس به وأفهمه •
كم كنت أقدر كراهيته للبشر ، وان كنت لا أعرف حياته ، وربما
مأساته • لا بد أن أمرا جلا حطم حياته بدوره • ومع ذلك كان
يمضى فى الحياة • كان لديه أمل • أمل ؟ فى ماذا ؟ أم انه مثلى
يتمنى أن تأتى النهاية ، أن يأتى الموت — دون أن يقدم هو عليه —
ويضع فى هدوء ، خاتمة لكل شىء ؟ لكن من كان باستطاعته
أن يجيب على هذه الأسئلة ؟ ثمة ما هو مؤكد ، على أى حال ،
انه صوت المعلقة — أو ربما كانت شوكة أو سكيناً — تقع على
الأرض ، رنة تمضى مبتعدة تتلاشى تتلاشى ، مثل دوائر
فى الماء من جراء سقوط حصاة • ثم مرة أخرى ، يخيم
الصمت ، كأن ما من صوت كان هناك • ولكنه شىء محقق ، ذلك
الصوت • ذلك الرنين ، أراهن اننى سمعته • أقطع يدى لو لم
أكن قد سمعته ، ولكن ماذا يعنى ذلك ؟ الكثير • الحياة لا زالت
لها الكلمة الأخيرة • كان جارى يتأهب للأكل • ومن يعاند
الجوع ؟ من ؟

عيش وجبن ؟ لحم مقدد ؟ زبد وعسل ؟ فول ؟
بصل ؟ بيض مقلى ؟ قرع مسلووق ؟ عيشاه لا ترفعان عن الطبق •
أتصور ذلك • أكان أتخيل أيضا الأثاث فى الغرفة المجاورة •
دولاب كلما فتحه اصطدم بابه بالحائط • لا مجال للخطأ فى

ذلك • الصوت يكفى للتثبت من وجوده • وسط الغرفة — أكاد أقطع بذلك أيضا — منضدة ، يجلس اليها جارى كلما تناول طعامه • يؤكد ذلك صوت الأطباق والملاعق الذى ينفد من بعد معين ، وارتفاع لا يتغير •

خطوات تسير • خطوات تتوقف • زحزحة مقعد • ثم رنين أدوات معدنية وصحاف • ألا يكفى هذا للاثبات ؟ ولأَمْضِ الآن معه ، أعائشه • وجه مكتب ، منكس فى الطبق • أسنانه تمضغ الطعام بفتور • حركات النواجز والفكين بطيئة ، سقيمة • • لست وحيدا فى هذا الوجود مترامى الأطراف • — أو ربما يخيل الى — انى لست وحيدا ، لست وحيدا تماما • من وراء الحائط الذى يشطر غرفتنا الكبيرة الى غرفتين بينهما سور واه ؟ من يلوح بيده ، ويشد من أزرى ؟ وهل أنا بحاجة الى ذلك ؟ كلا ، لكن ، مجرد الشعور بالمشاركة هو الذى يعيننى • وياله من وهم ، شعور زائف بأنك لست وحيدا ، أمنية عذبة مثل مخدر ، ممضة مثل مسمار دق فى ظهرك • ولكن الآخر ، ألا يشعر بمثل هذا الشعور ، وهو يسمع بدوره — ألا يسمع ؟ — من خلف الحائط خطواتى وحركاتى ؟ أم ان الشعور هو شعوره ، وأتخيل اننى أشعر شعوره نحوى • خطواته تبتعد ، ومعها قلبى يغوص فى صدرى ، أو ان شئنا الدقة فى التجويف الذى كان ذات يوم صدرى •

نظرت الى ألبوم الصور : ها أنا أجلس الى منضدة • الغطاء

فماش ذو مربعات حمراء وزرقاء • أمسك ملعقة ، أغمسها فى الحساء ، والمنشفة البيضاء مبسوطة على صدرى • البخار الحريف يصعد من الطبق الى وجهى • كانت تلك أيام العز • كان كل شيء ميسرا ، لكن الزمن راح لحاله وانقضى • الأيام والليالى ، والأصباح والأمسيات ، كلها مرت رتيبة كثيفة فاترة • وعلى الرغم من أن حياتى بدت سائرة على نمط واحد ، الا أن ثمة شيئا كان يتأكد فى ، وأنا قابع عند ذلك الجدار أسمع ما يأتيه جارى من حركات وسكنات • صور أحبائى ، صور أولئك الذين غرسوا فى جسدى الأشواك ، أولئك الأحباء الذين أدموا جبينى وعنقى وصدرى وجنبى بحراهم المسنونة — صور هؤلاء جميعا نحيتها جانبا ، وأصبح ذلك الجار الذى أسمعهُ يتحرك وراء الجدار شغلى الأوحاد ، أصبح مجسما ، يملأ وقتى كله • أتعقب ما يصدر عن غرفته — غرفتى ، غرفتنا — من أصوات •

وعلى الرغم من أننى كنت فى صحبته كل وقت ، حتى أصبحت حجرتى هى حجرته ، فتداخل الحيزان ، ولبس أحدهما الآخر ، مثل علبة كبريت وغطائها — على الرغم من ذلك فقد وددت أن ألتقى به ، أن أجلس اليه أستمع له يحكى لى — وأحكى له — مأساته ، التى يخيل الى أننى أعرفها ، أكاد أعرفها • ليست غريبة على • رجفة فى دمايى تقول لى ذلك • كان سيحس بى ، أفضل من أى أحد غيره • أليس مصابنا واحدا ؟ أو على الأقل متشابها ؟

ولكن ثمة شيئا يفصل بيننا ، يفرق بيننا • الحائط ؟ بالطبع هو حائط ينتصب مثل حارس يباعد بيننا ، ولكن ذلك الذى يفصل بيننا حقا ليس هو الحائط الذى يفصل بين الغرفتين ، فهذا مثل سائر الحوائط المادية يحجب كينونة كل منا فحسب ، أما مصيرنا فيحجبه حائط آخر ليس من طوب وجير وأسمنت ، حائط لا تقدر عيوننا أن تبصره ولا أناملنا أن تلمسه ، ولكننا موقنون من وجوده قدر يقيننا بانقصام أحدنا عن الآخر ، حائط يبنيه كل منا حول الآخر • يوضع حجره الأساسى منذ الولادة • حتى اذا ما جاءت اللحظة وانطفأ القنديل كان هذا الحائط قد اكتمل • وانتصب عاليا ، عاليا ، محوطا ، فلا يدرك ما وراءه الا من خلال فروض وتكهنات تثير الرجفة ، فهى مجرد أصوات مبهمه غير محددة ، يكتنفها الغموض وكلام كثير ، كثير ، ولا يقين • حوائط تخفيها وتحميننا • أكاذيب كبرياء واستجداء • كان على أحدنا أن يهدم هذا الحائط العتيق • ولكن من منا يبدأ ؟

حاولت أن أهدمه أنا • ذات ليلة ركزت كل قواى الذهنية • تخيلت اننى أنزل وأصعد درجات السلم ، آملا أن التقى بجارى • سوف أحياه ، وربما تكلمت اليه • كان البواب غائبا تلك الساعة ، فمضيت أنزل وأصعد الدرجات المهجورة بلا مضايقات • كنت أذرع الدرجات بخطوات وئيدة ، وبين الفينة والفينة أقف وأصيحخ السمع • دائما أصيحخ السمع • أذناى هما طريقي • أذناى هما

عزائي . هما حبل النجاة الذي أتشبت به . كنت أقف وأرهف
السمع في هدوء ، متمالكا نفسي ، لكنني ما ان سمعت وقع
خطواته المعهودة تطأ العتبة تحت ، حتى اتأبنتي رجفة . وأحسست
ساقى يرتعشان وبعد هنيهة لمحته يصعد السلم ، ويدنو مني ،
مثبتا نظراته الى الأمام بلا اكتراث بمن حوله . وكنت الى يمينه
بويساره وورائه ، ومن فوقه وتحتة ، وأمامه . ولكنه كان معرضا
على الدوام بوجهه الذي خلا من كل تعبير ، وروحه الشقية .
كان قد شرب من روحى أنا ، ورشفتني حتى الثمالة . سریت فى
دمه ، وفى لحمه ، وفى عظامه ، وأصبحنا نصعد الدرجات ، وننزل
معا . صحت فيه بصوت لا صوت له . . ولكنه لم يكن على
استعداد أن يلتفت الى أى نداء . ربما لو سمعنى ، لو تجسم
ذلك الصوت ودبت فيه الحياة ، لألقى فى وجهى شتائم ولعنات . .
ولهذا تراجعت ، ومر هو من جانبي ، دون أن يعيرنى نظرة .
وحتى تحية المساء التى كنت قد دبرت أن ألقيا عليه اختفت فى
حلقى . كما ماتت على شفتى كل الاستفسارات والتوسلات التى
أعددتها لهذه المناسبة . فى أعماقى مقبرة كلمات وآمال وعواطف .
كلها ، كلها ، أوراق ذابلة تدفعها ريح خريفية الى أرض غرقتى ،
فإذا سرت عليها سمعت قرقرة عظام فقيد عزيز ، فرض على كطقوس
يوجبها كتاب وثنى عتيد أن أدوس عليها كل يوم ، بل كل لحظة
بيليل وبالنهار ، وتصعد أناتها الى رأسى المسندة الى الحائط فى

وهن وأعياء • كل التركيز الذي قدرت عليه تبدد • وها أنا ألصق
أذنى بالحائط الأبدى ، على أجد الصوت الذي بقى لى ، الصوت
الذى يمدنى بالحياة • سأعاود الاصغاء ، فربما كانت الذئير كاذبة ،
أو ربما لم أفهمها جيدا ، أو لعله لم يبق لى الا الاصغاء • بأناة
وحذر ، سألم أشتاتى وأخوض معركتى من جديد • كنت فى
صباى أصلى • أصلى حتى من أجل قطتى ، الى ان ماتت قطتى •
ماتت • ماتت ، وألقت بها أمى فى صفيحة القمامة • جاء عامل
النظافة ، وأخذها معه اليوم التالى • الى أين ؟ اننى أشم تنانيتها
من بعيد ، وتنانة جدتى ، وأبى ، وأمى أيضا • كانت أسعد
أوقاتى عندما أصبت بالزكام • هس ، صمتا • جارى يعطس ••
ثم يصدر من أنفه خيرا • اسكت ، أيها اللعين اسكت ! وددت
ان أعدم فلا أسمعك • بعد هلاكى لن يكون لك وجود • وجودك
مرهون بأذنى • لو قطعنا ، لو قطعت كلى مثل شجرة نخرة ،
لما أصبح لك وجود ، لكننى مشغوف بك • أريدك أن تبقى ،
ولهذا أبقى أذنى لصق الحائط الرطب • يا للجهيم ، شىء لم أكن
أتوقعه ! صوت نسائى ! يقول له « سلامتك ، يا حبيبى • خذ
قرصا ، واجرع قليلا من الماء » الصوت ليس غريبا ! يتسلل الى
أذنى ، يذكرنى بالوسادة التى كان يزحف عليها كل ليلة ويقول
« اطفىء النور ، يا حبيبى » ثم عبر الحائط تفد رشقات ، ورنين
كوب ، وحفيف خف • أعرفه ، هذا الخف ، جيدا •• كأنه يسير

على جسمى • يدوس على صدرى • وبطنى ، وفخذى ! وأنا من
لى بقرصى المسكن !! من ! ؟ صوت لا صوت له • عطشان
عطشان • لكن ما الجدوى من كل هذا الالتياح ؟ ما من أحد
يسمعك • رأيت ذلك من قبل ، على السلم ، وانتما تصعدان •
صوتك مثل خطوات قط فى الظلام • اهدأ اهدأ ، فلم يعد فى
العبة مسكنات ، وعليك أن تتحمل الألم • فهذا أفضل مسكن
للآلام ، قوة الاحتمال ! سأحاول من جديد فى أقرب فرصة •
وربما لا أكون مخطئا لو أقول انه فى مثل هذه الظروف يحتاج
المرء الى كثير من الروية • ها أنا أحفر بأظافرى على الحائط
الكلمة الكبيرة « الصبر » انه كنز لا يفنى ، ولكنى كلما مضيت
أتابع حياته من وراء الجدار تيقنت ان من العبث ألا نعجل بهدم
ذلك الحائط ، والانسارع بالالتقاء • كنت قد خطوت الخطوة
الأولى فى هذا الطريق ، بغض النظر عن أننى لم أصل الى نتيجة
مرضية ، فهو لم يلق الى نظرة ، لماذا ؟ ألم يتبين بعد أننا من
طينة واحدة ، اننا توأمان ، اننا وجهان لعملة واحدة ، ان مصيبتنا
واحدة ؟ ربما كانت تركيبته النفسية أكثر تعقيدا منى ، ربما لا زال
يحيا المأساة — مأساته — ما الذى أعرفه — مهما ادعيت — عن
حياته ؟ عندما نبعث من جديد سنعرف اننا لم نعش يوما ، ولا حتى
لحظة • هكذا نولد ، يشق قبر ونخرج منه • وانتهى الأمر •

وفجأة ، ذات ليلة ، سمعت خطواته — على غير عادته فى

تلك الساعة - تتجه الى الباب الخارجى • انبهرت أنفاسى •
أسقط فى يدى • لم يكن بابه يفتح بعد العودة • ان يخرج مرتين
فى اليوم الواحد ، كان هذا فظيعا ، وأنا - موثق القيد الى هذه
الجدران - لا باب عندى للخروج ، ولا نافذة ، ولا حتى كوة ! •
ولكن اذا فتحت فى الجدار مثل هذه الكوة • ألن يجلب لى ذلك
شقاء اضافيا ؟ بهذا كنت أحادث نفسى ، فالمرء بحاجة الى مسكن
على الدوام ، وفى عقله يجد أكبر علة من المسكنات ، فهذا العقل
الحكيم الجبان لا يقوى على غير التماسك واذا لم يستعن
بالمسكنات تناثرت أشلاؤه وأصبح منظرها ملتصقة بالجدران
والسقف لا يطاق • فتح الباب فى الغرفة الملاصقة اذن • ثم أغلق
وأدير المفتاح فى القفل الصدى • خرجا • وأنا ؟! مضيت أجرى
متخطا بين جنبات حجرتى • أتعرش ، وأنكفى ، ثم أنهض ، لأتخط
وأسقط من جديد • ولكن على الدوام ، فحيح الأفعى يواسينى
مخادعا « أفتح الألبوم ! » سمع لتقليب الصفحات صرير عتيق •
الخطوات تمضى مبتعدة ، صاعدة درجات السلم ، خطوة • خطوة •
صوت مرتعش يهمس « خائفة » الصوت الآخر يجيب « ليست هذه
أول مرة » هناك ، اذن ، غرفة على السطح أيضا • ركزت
قريحتى • أذكرها ، غرفتى على السطح فى حلوان • الأريكة
بجوار الحائط • الجسد الممدود ، العينان الواسعتان مثل كهفين
والشعر الأسود والشفقتان الظامتان ، والقبل الحارقة ، والبئر ،

والكلب يعوى عند أول الشارع ، وضوء القمر • • والأكذوبة ،
والسم الزعاف ، والنداء المجهول ، والعطور ، والرغبة المجنونة
تذيب العقول ، ومن جديد يعود كالمسحور • يدفع الباب الصدى ،
ويصعد الدرجات فى خطوات ثقيلة ، ويرتمى بين الذراعين ، على
النهادين • وتعصر ذراعاها المرتعشتان القامة النحيلة • وتمس أنامله
نحرها وصدرها وكتفيها وشعرها ، فى استجداء ذليلة • الحركة
الصاعدة الهابطة ، الأنفاس الثقيلة المسحوبة من أعماق بئر • على
البساط المزركش بالرسوم الوحشية الغامضة الأقدام حافية تدب
خطواتها لينة من فوقى • عيناى جاحظتان • تسمرتا على السقف ،
وعلى النجوم والفراشات والأفاعى • الماء يجرى من الصنبور
المفتوح فى الطابق الأرضى ، والخير يتعالى كدخان من نار
باردة • الشهوة فى العروق تغلى ، ثم تخبو دون أن تنطفئ •
ها هو اللعين يعطس من جديد • هكذا تجرى الأمور اذن من
وراء ظهري ، من وراء الحائط ! اعتقدت انك بوجهك الحزين
تحمل روحا مثقلة بهموم الدنيا كلها مثلى ، عطفت عليك أفسحت
لك مقاما فى حياتى • بالأحضان كنت أستقبلك • ثم ها أنت ذا •
فوق ، فوقى ، تدوسنى بنعليك ، لا تعنيك قرقرة عظامى • صوت
الملة يهشم ضلوعى • فتح عينيه ، ثم عاد فأغلقهما بسرعة • صدمه
نور المصباح المدلى من السقف • كانت هى منكبة عليه تحاول
جأناملها أن تمحو التجاعيد المحفورة على جبينى • نزلت من

السريـر ، حافية القدمين • ذهبت الى الشرفة ، وفتحت الضلفتين
الخشبيتين قليلا • ثم أقفلت الزجاج • قلت لها « ضعى شيئا على
جسدك » انتابنى خوف وأنا أراها تخطو عارية أمامى مثل أثى
حيوان ضار تجوس الغابة على سجيـتها • أطفأت النور • وجاءت
ترقد الى جوارى • كانت الأضواء فى الغرفة تفد الآن من الخارج
خلال شقوق الضلفتين الخشبيتين • اضاءة صحراوية صفراء
ناصعة • ما عاد مخزن المسكنات يفيد • اختلاسات ، اختلاسات ،
من كل نوع • من كل جانب • نصبتك أمينا على القليل • وهـا أنت
تستحل لنفسك مالا حق لك فيه • وأنا آخر من يعلم • لم ترع
حرمة لعنتى ، ولم تأخذك بى رافة • اذن ، خذ ، خذ هذه • فاذا
كانت حياتى كلها جدباء فلا زالت ذراعى لا تعانى مما عاتته بقية
الأطراف • امتلأت الغرفتان بالصياح • ارتجت الجدران ، تساقط
البلاط • صرخات تدوى : صرخات تمزق السكون • الريح تصفع
الشباك الخشبى المفتوح • تخبطه فى الحائط • يرتد اليها ، فتعود
تصفعه • وأنا أضرب الأرض بجسدك النجس • اضرب • اضرب ،
أهشم رأسك • صرخات وصرخات ، ثم يخمد كل صوت ، ويخيم
الصمت البليد ، كأن شيئا لم يقع • كأن لا معنى لشيء • كأس
يسقط ويتناثر حطامه على البلاط • أمواج يعلو هديرها وينخفض
رتيبا مهيبا ، مثل ظلام الليل ، مثل كل الظلمات • على أسفـلت
الطريق وقع سنابك جياـد تجر عربة سوداء تبتعد ، ويتعد معها

الصهيل • عاد الهدوء • سكنت الريح • غسلت الأمطار أحجار
الطريق ، فبدت فى اليوم التالى تلمع تحت شمس نوفمبر •
الحانية • أين تذهب الآهات ؟ أين تذهب الصرخات ؟ أين تذهب
الزفرات ؟ بحر الصمت يتلع كل شىء • شيطان الصمت يخنق
كل شىء •

مسكين أنت ، أيها الانسان • لا يملأ عينيك الا التراب •
سمعت ذلك القول كثيرا • مساكين انتم ، يا من فى الغرف
المجاورة • شرسون انتم ، ضعاف ، خطواتكم بالخارج تمضى
مبتعدة ، حتى يتلعتها صمت غرفتى ، ولا يبقى من صخبكم
الا لهثات • لكن أين تمضى الخطوات فى تلك الساعة ؟ منذ نزلت
بهذه الغرفة ، كانت هذه أول مرة يخرج فيها جارى بعد العشاء •
لا مفر • لا بد أن أعرف • الفضول آفة لا توبة منها • أين
تذهب الخطوات فى تلك الساعة المتأخرة ؟ ركزت ذهنى من
جديد • خلعت البيجامة ، وعلى عجل ، ارتديت سروالى ، واثقلت
حذائى ، ثم ألقيت سترتى على كتفى • وخرجت أنزل درجات
السلم قفزا • وعند الباب الخارجى رأيت البواب ينظر الى
بدهشة • قلبت صفحات الألبوم • جابر ، جابر • كان هذا
اسمه • سألته « من أين ذهب ؟ » تفحصنى من رأسى الى قدمى ،
وندت منه صيحة « من ؟ أنت ؟ » سكت كمن يدرأ عن نفسه
خطرا داهما • زدت اصرارا على سؤالى « أجل ، هو • أين

ذهبا ؟ ارتعد صوته « كيف ؟ كيف حدث هذا ؟ » هددته •
انكش ، وقال « فى مرآة معكوسة » فهمت • مضيت أجرى •
كانت مصاييح الشارع تلقى ظلى على الأرض أمامى • كان يجرى •
بدوره معى • دخلت زقاقا • كان معتما • تعثرت • وجدت أمامى •
حائطا عاليا ، يسد على السبيل • • طرقات • كلت يداى • أجبني •
أجبني ، يا ظلى • اسمعنى • أنسى دائما ان صوتى لا صوت له •
بعض الأحيان ، تمنيت أن يكون قد عرفها قبلى حتى أكون •
أذا منافسه منتزعا منه ، أن أكون أنا غريمه • لا أن يكون هو •
غريمى •

وقفت عند كشك واشتريت علبة سجائر • أشعلت سيجارة •
نفث دخانها فى وجه الليل • ها هى الغرفة • ها هى النافذة •
مغلقة • ظلام بالداخل ، وفى الخارج ظلام أيضا • • هل جاء ؟
هل سيجيئان ؟ انزويت فى مكاني • من هنا أستطيع أن أتابع •
دون أن يرانى أحد • أضواء شاحبة ، هناك • أنا فى الظلام الآن •
دائما كنت فى الظلام ، قطعة من الظلام أنا • بعد قليل ، توقفت •
سيارة تاكسى • نزلت ترتدى التايور الأزرق ، وفى يدها حقيبتها •
السوداء اللامعة ، هداياى القديمة • كل شىء أصبح قديما ، بالياء •
ضاربا فى القدم ، متهرئا ، حتى الأكفان والتوايت نبشت •
واغتصبت ، وسرق منها ما سرق • من هو الآخر ؟ ها هو • أثبته •
جيذا ، وهو ينزل من التاكسى ، موليا اياى ظهره • انه هو ! أجل •

هو بلحمه ودمه • وبين شفثيه الغليظتين تتدلى سيجارته ، وفي
عروة سترته شبك زهرة • تجيل هي النظر حولها • لا بد أنها
تخشى النظرات الخادشة ، ولكن نظراتى أنا • هل تخشاها ؟ كلا ،
انها مطمئنة ، فلست بالمدينة • غادرتها فى سفر يستغرق أياما •
« لن يكون هنا الا يوم الخميس • لا خشية من نظراته » •
هكذا تقول لنفسها • ابتعد التاكسى الآن • وضع الآخر المفتاح
فى الباب • دفعه • ودخلا • الباب أقفل • صدت عيناي •
ركبتاي ترتعشان • اتكأت على مقبض الباب خلفى • برودة الحديد
تسرى فى أصابعى وراحتى ونخاعى • أبواب • أبواب كثيرة
تصطفق • مفاتيح تدور فى الأقفال • صرير أبواب قديمة • رتاج
يحكم • سلاسل تصلصل • ثم أبواب حارسة شامخة • أسوار
حول مدن حصينة من مدن القراصنة تصد عنها غارات • مداخل
كهوف سوداء • كهوف داخل كهوف • سراديب ثعبانية • أبواب
حامية متينة القضبان • فى صدره باب يقفل أيضا • ستائر من
الصلب تسدل • ويحكم تثبيتها • أغلق قلبى أبوابه • خرجت
منه • تركت الباب مواربا لكنه اصطفق • نفخت فيه ريح فانغلق ،
دون أن يدرك • قلبه وحده أدرك أن الباب انغلق • دخل مقهى •
شرب كأسا وأشعل سيجارة • تجلد • ثبت قلبه بين ضلوعه • طلب
كأسا آخر • جرعه دفعة واحدة • اشتعلت وجنتاه • هى الآن بين
ذراعيه • كأس آخر • حتى الثمالة • رأسه تدور • وتدور معها

هى على الفراش بين ذراعيه • عارية • الأصابع تتحسس جسدها •
تسرى الرعدة فى أحشائه ، كلا ، انه لا ينسى بالشراب • بل
تزداد الذكريات تأججا • وينفتح الجرح • هى • وجهها ، فحيحها •
«سامحنى • سامحنى • لم أستطع أن أقاوم • حتى النهاية لم أقاوم •»
الحقد الهائل يجتاحه • يصعد من قدميه الى رأسه ، ويحرقه •
لو كان الذى أخذها منه رجل آخر لما تعذب الى هذا الحد ، لما
اضمر له ما يضره الآن من كراهية •

نهض • ومضت فى عقله الفكرة الجهنمية ، وسريعا ما استقر
عزمه • على شفتيه ابتسامة ملتوية، لكنها بعثت الى قلبه الرضا ••
سوف ترى الآن • سوف ترى ماذا ينتظرك • خطواته تقترب • انه
يسمعا على أسفلت الرصيف • سريعة ، ثقيلة ، مهرولة • كان عليه
أن يلج ذلك الباب اذن • وكم سيكون الظلام عندما يفتح الباب
المطل على حمأة الليل !

هرب منى • أحسست بالعزلة تمزق فؤادى سأفقد حليفى
الوحيد ، اذن • وسأعود الى وحدتى القديمة • كلا • ليس ذلك
ممكنا • ليس حليفى قادرا أن يفلت من قدره ، مثلى تماما •
الحائط الذى يفصل بيننا انما يحوط بنا أيضا • وانى لنا ان
نكسره ؟ كيف ندور حوله ، ونخرج من أساره ؟ انه هو الذى
يدور حولنا • يلفنا ، يلفنا ، مثل أسطوانة ، مثل ماسورة فى
ماكينة تكرير • أشعر بالدوار • الى شراب ، جرعه من شراب ،

شراب ! الهث ، انها النهاية ، لكننى أعرف الا نهاية • فحيح
الأفعى « تماسك » أجل يجب أن أتماسك ، وهل أترك رفيقى
فى الغرفة المجاورة لعزلته ؟ هو بحاجة الى • كما اننى بحاجة اليه ،
كلانا يكمل الآخر ، كلانا امتداد ، نحن لحظتان متتابعتان فى زمن
واحد • • حلقتان فى سوار حول معصم واحد • يخيل الى أحيانا
اننا نحن اللذان نحوط بالجدار ، وليس هو الذى يضيق علينا
الخناق •

دائما أعود الى غرفتى • الانسان بحاجة دائما الى مكان •
انه ليس محاصرا بالزمان فحسب ، بل هو أسير المكان أيضا •
لكننى عزمت الآن • سوف أتخذ قرارا حاسما • غدا ، ما ان يعود
للعشاء سأدبر لقاء معه ، فى غرفته • لا تهمنى العواقب • سأقابله • •
لن تثبط من همتى أسارىره المتهجمة ، ولا مسحة الحزن المرتسمة
على قسمااته • سأطلب منه أن تتعارف وأن تصبح صديقين •

ماذا حدث ؟! ما الذى عاقنى عن أن أنفذ ما عزمت عليه ؟
ما الذى منعنى من أن أدق بابه ؟ أهو صوتى الذى لا صوت له ؟
أهو خجلى من عدم وجودى ؟ كلا • • ليس هذا ولا ذاك •
ما منعنى انما هو انه لم يعد الى غرفته ، هو ما زال غائبا ، وأى
عذاب عذاب الانتظار ، عذاب العطش الى الآخر ! قبعث عند
الحائط ، ومضيت كعادتى ، انتظر • انتظر صحبته الخفية ، مثل
كلب ينتظر عودة سيده • لا صوت فى الغرفة المجاورة ،

ولا صدى ، ينم عن عودته • سدت نفسى عن كل شىء ، كما كان
حالى قبل أن ألتقى فى هذا الوجود بخطواته • رقدت ، ومضيت
أنتظر متوتر الحواس متحفزا • الصنبور لا زال مفتوحا ، والماء
يتساقط قطرة قطرة • ليس من السهل أن تلتقط آذناك هذه
القطرات المتساقطة • يجب أن ترهف السمع لتسمع • قلت لنفسى
ربما تراكم الماء وأصبح طوفانا ، وأغرق هذه الغرف ، كلها ، كلها •
أن تتوقع حدوث الكوارث ، أن تتوقع الخراب ودنو الآخرة ،
عزاء • لكن فى هذا المستنقع الراكد من الصمت العزاء أمر
مستحيل ، فأنت قد تركت هنا لنفسك تنهشك ببطء لتعود فتنهشها
أنت وذلك ما لا نهاية • هذه الازدواجية هى الاسار الأبدى •
السجائر ما عادت تجدى فى قتل الوقت • مضيت أغنى لنفسى ،
فإن سماع الانسان لصوته ، واحساسه بأنه موجود ، مفيد فى
مثل هذه الحالات • انه يبعث قليلا من الدفء والثقة بالنفس ،
ولكن ما تلبث الأرض المجذبة الظمأى أن تمتص القطرة الأخيرة
ويعود الجفاف • أحس بحلقى قمينة من الجير • مضيت أنتظر ،
وكلما ندت من السلم أدنى جلبة أقول لنفسى لا بد أنه هو ، لا بد
انه رجع ، لكن الجلبة كانت على الدوام سرايا ، فهى تارة جرد
ينفلت نازلا السلم ، وتارة هى الريح تعبث بالأبواب غير المحكمة
الايصاد ، وتارة هو قط يغازل أنشاه أو يتشاجر مع غريم • أما
الخطوات المرتقبة فكانت لا تجيء • رحت أتصفح الألبوم ، قتلا
للوقت وبعثا عن عزاء •

« اهدأ يا حبيبي • نم هنا » « على صدرك ؟ » « الذى
طالما اشتهيته » « ناعم • دافئ • طرى ، مثل وسادة من ريش
النعام • سأنام • سأنام الى الأبد • الى الأبد • سأنام » ارتجت
العربة • استيقظ • توقفت السيارة فجأة • نهض منتفضا « أين
نحن ؟ » « عند نقطة الهرم » « البوليس ! » افتتح باب السيارة •
ظهر فى العتمة ضابط يرتدى معطفا أسود ثقيل • ومن ورائه
عسكريان • وفد صوت الضابط مهذبا وحازما « سوف نزعجكما •
لكن الأمر عاجل • يجب أن نرسله معكما • هذا الجسد لا يجب
أن يبقى هنا • ترون المطر الذى يتحول عند السفوح الى سيل
منهمر • « الجسد ؟! أى جسد ؟! » « معذرة ، أقصد الجثة •
ستحملانها معكما » شهقت جزعة « اعتبارات الأمن تقتضى ،
يا سيدتى ، أن أطلب منكما ذلك • » ثبت الضابط أنظاره على
الجسد الآخر ، وأضاف مبتسما « واعتبارات انسانية أيضا •
أعرف ان الأمر مزعج لكما • لكن فى هذا الوقت ليس هناك
وسيلة أخرى • لا تخافا • الموتى لا يقتلون • سيصحبكما واحد
من رجالى • سيسلمه الى المشرحة • لا تخافا » • كانت السيارة
تجرى بسرعة • جلسا ملتصقين متعانقين بشدة • رفعا بخوف
مهول سيقانهما الى ظهر المقعد الأمامى ، حتى لا يلمسا الجثة
المسجاة على الأرض ، تحتها ، ملفوفة فى عباءة قاتمة ، هواء
بارد يلفح وجهيهما • ازدادا التصاقا طلبا للدفء • كذا يرتعدان •

جلس الشرطى الى جوار السائق يدخن ، ويتكلم بصوت جهورى .
لف سيجارة . وأشار الى الجثة بسيجارته « وجدناها ملقاة على
بعد خطوات من طريق السيارات بجوار الهرم الثالث . » نفث
الدخان ، وقال ، وهو ينظر الى المرأة فى مرآة السيارة « أتعرفين
ماذا قال زوجك عندما لف هريدى الحبل حول عنقه ، وشده
الى الخلف ؟ » قالت المرأة من بين أسنانها « أنا لا أعرف شيئا »
قال الشرطى بهدوء « صرخ متوسلا أن يتركوه من أجل أولاده
الثلاثة » نقل الشرطى نظراته فى المرأة نحو الرجل الملتصق بها
« حضر المتهم الى مسكنك ، وقضى معك السهرة ليلة مقتله .
أليس كذلك ؟ » استدار اليها وقال « لا . لا تخفى وجهك الآن .
كل شيء انكشف . » فكست المرأة وجهها ، فانهمرت جداولها
وقالت « كنت أبحث عن وجودى كامرأة . واذا بى بين رجلين
ينظران الى نظرة اعجاب . تفت أن أحيا الحياة التى تجعلنى أروق
فى عيني كل منهما . »

كل شيء بدأ فى تلك الليلة مثل الأحلام . كانت الريح
تعصف وتلقى بالأشجار محنية الى الارض . وفى أديم السماء
تولى السحب مشكلة بأشكال وحوش اسطورية ودوامات هاربة
.. استدار للمرة الأخيرة نحو الشباك الخلفى . بدت له الدنيا
من كوة ذات قضبان . الى جواره كانت نيللى . معطف بفراء
أبيض . لا يذكر متى ركبت السيارة ، ولا كيف وجدها الى

جواره • ذكرى قديمة • المال يجذب ويقرب • سمعها تقول
« خذنى معك » والتصقت به • صوتها ناعم مثل فرائها • متسلل
مثل نظراتها • مسكر مثل شفيتها • أين راح كل ذلك ؟ مضت
ساعة صمت طويلة • الأشجار الباسقة فى الخارج تصفعها الريح •
فتميل على بعضها • كأنها تعدو وراء بعضها • محنية الهامات •
تكاد تقبل أغصانها الأرض • متوسلة أن يخلى سبيلها • وبين
الحين والحين تلفحها ومضة ضوء فتبدو مثل أشباح تحرك
سواعدها • تحاول الإمساك بشئ • قالت • قطرات المطر تنسال
على زجاج النوافذ فتزيد الرؤية اعتاما وغموضا • الجسد على
أرض السيارة كان ينتفض من وقت لآخر • مثل خشبة متصلة
ترتج كلما ارتجت العربة فى اندفاعها السريع • مضى الشرطى
يبصق ويلعن الحفر والمطبات • وينظر اليهما نظرات تتسلل الى
أعماقهما فتزداد اصابعهما تقلصا وتشبثا بأصابع الآخر • كل
شئ بدأ مثل حكاية قديمة فى هذه الليلة التى غسلها المطر •

« تعال معى » « ما عدت حرا » أوما الى الجثة • •
« أردت أن أتخلص منه فازدت التصاقا به » ارتجت العربة فألقت
بالجسد نحوهما • قال الآخر « أين تذهب ؟ أنت لى ؟ » قلت
« ابتعد » ركل الجثة • قال لى « الست صديقك ؟ » ركلها
من جديد • « لم نكن نفترق » قلت له « لا اريد أن أراك » قال
« ومع ذلك • نحن شخص واحد » قلت « لا اعرفك » قال

« أنت الذى قتلت • لست أنا • كم اشفق عليك ! » تشبثت
نيللى برقبتة وقالت « دعك من الهلوسات يا حبيبى » « وددت أن
أوهم نفسى بأن لا شىء حدث » « انتهى العناء • كل شىء بين
يديك الآن، فالنرحل » « أريد أن ألحق به » « العالم رهن
إشارتك • دعنى أقبلك » • « تنخدعين فى • • لست أذا من تظنين
• • لست الرجل الثرى القوى الذى يرضى اطماعك • لست ذلك
السعيد الذى ظننت اننى كنت • أريد أن أبكى » التمعت فى
الأعماق ومضة مسحت سواد الليل لحظة • « أنا زوج قتلنى
عشيق » « أوهام من صنع خيالك » « ألا تخافين منى ؟ ألا تخشين
أن تعانقى جثة ؟ أنا قتلت • ها هى جثتى تلمس قدميك • أنا
جسد آخر » « ابعد عنه ! لا تضعف ! » « يجب أيضا أن ترى
وجهه » « لا تزح عنه العباءة ! » « سأكشف وجهى ، وجهى الحقيقى
كى تريه ، يا سيدتى الناعمة • » « لا ! لا تفعل ! » « تأمليه •
وليرتسم فى مخيلتك لتقولى عنه لمن سيكون ليلة غد فى حضنك •
ستقولين كانت عيناه تلمعان مثل كرتين صغيرتين من زجاج • كما
لو كانا يسألانك لماذا ؟ لماذا فرض عليه أن يموت ؟ ومن أجلك ؟
انظرى ؟ جلده أصفر ، وفمه فاغر ، كأنه يريد أن يحكى عن قاتل
رأى جثته مسجاة عند اقدامه • كلا ، لا تغضى عينيك • من
الطريف أن تحكى عنها لعشيقك • » « يا لها من ليلة فى صحبة
مجنون ، وجثة محمقة العينين ! » كانت السيارة تجرى بسرعة •

تجری منحدره على الأرض الزلقة اللامعة • وعند الهرم الثالث
القا بالجة • كان البرد يغنى أغنية العشق المجنون والموت ،
وتصبها فى آذان الشجر مرتعش الجذوع ، والأغصان تتساقط
أوراقها الذابلة دموعا ، الليلة ، ليل العالم ، الليل الغريب ينزف
ويتدفق • ومن بعيد سمع نواح انسان من أعماق بئر •

أياما تلو أيام جلست ارقب الحائط الصامت • ماذا جرى؟
أین قاده تلك الزيارة الليلية ؟ تقلبت على جنبى ، وما لبث أن
عاودنى الأمل • كلما وصلت الى سمعى خطوة من الخارج ارهفت
أذنى ، لكن عبثا • تلك الخطوات الثقيلة البطيئة لم تعد تسمع •
بقيت فى موضعى وقتا طويلا •

انقضت على فى هذا الحال ليال وليال دون أن التقط من
وراء الحائط أدنى خطوة ، ادنى بادرة حياة • انتابنى قلق حقيقى •
هل ألت به حادثة ، هناك ، بالخارج • • حيث يتصادم الناس ،
ويغرسون أنيابهم فى أعناق بعضهم بعضا ؟ ولكن ألم تكن الجرائد
لتنشر الخبر ؟ ألم يكن يسمع نواح الورثة وصخبهم عندما يأتون
الى غرفته يقتسمون ثيابه وامتعته ، مهما كانت قليلة ؟ اذن ، أين
هو ؟ أين راح ؟ مضيت استعرض كل ما يمكن ان يكون قد
حدث له ، كل الاحتمالات ، دون أن أصل الى تصور مقنع • •
فى أعماقى ما زال هاتف يقول « سيجىء ، سيجىء » ، وهل يمكن
الا يعود ؟ هنا البداية ، وهنا النهاية أيضا • • ان كان ثمة نهاية

كنت أقفز من رقدتي أحيانا ، وأكتم انفاسى ، والصق صدغى بشدة
الى الحائط ، وقد تهيأت ان أتصيد أية همسة •• أو حفيف فى
الغرفة ، لكننى لم أكن اسمع الا دقات قلبى •

لا أعرف كم من الوقت استمرت حالة الغياب هذه ، ولكن
الانتظار بدا ثقيلًا رهيبًا • فى قبضة الزمن الوئيد أحسست بخيبة
أمل مريرة • ولكن فيما كنت آمل ؟ لماذا أصر على السهر
والترقب ؟ هل كان من المعقول أن يعود ؟ لا شئ يعود سوى
الذكريات • الأشجان القديمة وحدها تعود لتعذب • وما عادت
عيناى تشيحان عن صور الألبوم •

ذات ليلة ، وكنت أحاسب نفسى أشد الحساب ، سمعت وراء
الحائط الخطوات الثقيلة البطيئة من جديد • هببت من رقادى •
طردت عنى الخمول • وزايلنى الاعياء • أصبحت كلى أعصابا
متحفزة • هممت أن أصبح فرحا • هاهو يعود أخيرا ، ها هى
الأصوات تصحو فى الغرفة المجاورة • عاد الرجاء • عادت الحياة •
لم يكن الانتظار هباء • كان اللاشئ شيئا ، اذن • ها هو باب
الدولاب يثن ائنه المعهود ، عندما تفتح اليد المجاورة • ها هو
الكرسى يجر على الأرض ، ويصطدم فى رفق بحافة المنضدة
الخشبية ، شئ معدنى سقط على الأرض ، جسمه على السرير
مهدود ، أنفاس متعبة • الأصوات القديمة الحبيبة عادت • التصقت

بالحائط • غمرتني سعادة دفأت أوصالي • وتدفقت الدماء في عروقي • تبدد احساسى بالضياح والعزلة •

ظللت طويلا هكذا ، أرشف شعورا بطمأنينة ما • تشبثت بالخطوات وراء الجدار • وفي نشوة قبعت انتظر راضيا • مضيت بدورى أحدث جلبه حتى ألقت انتباه رفيقى الى وجودى • على أن دعوتى لم تلق استجابة فحسب بل ان الأصوات جلجلت بعد قليل فى أرجاء الغرفة الملاصقة ، تجوبها الخطوات من طرفها القصى الى طرفها القصى الآخر • شىء غريب ! ماذا حدث لتلك الخطوات الثقيلة الرزينة ، تعلو ثم تهبط • • وتتوقف ، تموت ، ثم تعود فتعلو متخبطة من جديد ؟! ظلت أذنى تمسح الحائط من طرف الى طرف • • وقد تعلقت به أنظارى وجلة • لماذا يتخبط بعصبية ؟ أهو ينوى الخروج من جديد ؟ توقفت خطواته فجأة ، خلف منتصف الحائط • جذب المقعد • هببت • تقضت عنى الأقمطة واللفافات • مددت رقبتى ، حتى التصق صدغى بالجدار تماما • ولكنى بدلا من أن أسمع الأصوات المعتادة دوت فى أذنى طلقة مسدس عكرت السكون المخيم • انكبت بذراعى مفتوحين على الحائط ، كما لو كان ذلك لأذود عن جارى وأحميه أو ربما لأحتسى أنا من شر يراد بى • لكن سرعان ما أدركت كل شىء ، وسقطت على الأرض •

ها هى الخطوات تفد من السلم ، خطوات كثيرة مسرعة ،

هناك من يقترب من غرفتي • يطرقون الباب بشدة ، ثم يعاودون
الطرق • تزداد الطرقات بقبضات الأيدي وبالراحات وبالأقدام
فى النهاية • انكشيت • ها هم قادمون • تصيب العرق على
جبینى • سيقبضون على - لا • لا ، لم أقتله • صدقونى •
انظروا یدى ، نظيفتين لا دماء عليهما خبأتهما وراء الظهر • لا •
لا ، صدقونى • لماذا تصوبون نظراتكم الى ، هكذا ؟ لست أنا •
لست أنا • صدقونى ، اذا كان بإمكانكم أن تصدقوا •• تزايد
العرق •• جريت الى ألبوم الصور أفتحه • عينان ملقأتان على
أرض الغرفة • جاحظتان •• مسمرتان •• تحدقان • آى يوم
منحوس هذا ! لم أقصد أن أقتله • ما بيننا كان •• قاطعنى
البواب قائلا « هدىء من روعك • اطمئنا الآن انه ليس انت •
اذن ، هو الذى قتل •• » راح يجر الجموع وراءه بذات خطواتهم
العجول المتخبطة • تسلفت معهم ، قناعا بين اقنعة • مضى البواب
يدق بقبضته باب جارى • ولما لم يتلق اجابة ، هجم على الباب
محاولا أن يكسره عنوة ، بكل ثقل جسمه • كان الباب مصنوعا
من مواد لا تتصف بالمتانة ، فقد كانت ترجع الى عصور
الاضمحلال التى جاءت فى أعقاب تلك الأيام الذهبية • تزايد
الصخب ، فقد أخذ الباب يستسلم لهجمات الجموع التى انضم
اليها آخرون فى هذه الأثناء • جيران آخرون تراحموا على
الدرجات حول البواب ، رجال خلعوا ستراتهم ، ونساء شعث

الشعور بقمصان النوم ، وبالقباقيب فى أقدامهن • توالت التعليقات والاستفسارات الفضولية « ماذا جرى ؟ » « من الذى أطلق النار ؟ » « الا ترون أى باب يقرعون ؟ » « مكتوب » « قضاء أهون من قضاء » « المكتوب على الجبين •• » « كنت أعرف ان هذا سيحدث له ، انه من الصنف الذى تصدر منه مثل هذه الأمور » « كلنا لها » « لم يكن يقرئ السلام أحدا » جينى يلتهب • القيت من حولى نظرة خائفة • سمعت صوت الطبيب الشاب يساعد البواب • الجميع لا أعرفهم ، لا أكاد أعرفهم ، أو ربما عرفتهم ذات مرة ونسيتهم • التقيت بهم كثيرا فى طريقى على السلم • جيران هم • ذات مرة أريد اخلاؤنا فتظلمنا معا ، ذو الصوت المبحوح ، والثرثار الذى يسعل كلما انتابه الخجل ، وذلك الذى يتجشأ ثم يتمخط ، وصاحب الصوت الحاد سريع الألفاظ • اناس التقيت بهم فى ماضى ولاشك • انزويت فى ركن مظلم • همساتهم تلاحقنى ، وتثقل من وزرى •

انهار الباب •• دخل الطبيب أولا • ثم أعقبه البواب ، ومن ورائه الرجال • بقيت النساء خارجا مترددات يرهبن الموقف • لم أستطع الحراك • تسمرت فى مكانى والبرودة تسرى فى ظهرى ، أنصت الى الدقات فى تجويف صدرى • ابتعدت خطوات البواب داخلة • تعالت همهمات النسوة عند الباب سائلات « الاصابة خطيرة ؟ » أجاب الطبيب من الداخل « تمزق داخلى » برز تساؤل

آخر « أين وجد ؟ » أجاب أحد الرجال « فى الحمام • على
البلاط » سأل صوت رفيع « لكن لماذا كان الصنبور مفتوحا ؟ »
وضع البواب حدا للاستئلة وقال « افسحوا الطريق • لنستدع
البوليس » لم يجد الطبيب سوى جثة ، سالت دماؤها فى خطوط
متشابكة الى الحائط • سأل « ألم يكن القتل غائبا ؟ » أجاب
البواب « جاء هذا المساء • سألتنى ما اذا كان قد ترك له أحد
خطابا باسمه • رددت بالنفى • نظر فى صندوق البريد غير
مصدق ، وبدأ عليه القلق • لابد أن للخطاب أهمية خاصة ، فقد
عض شفتيه ألما عندما أيقن عدم وجوده • صعد الدرجات
بخطوات ثقيلة ، كما لو كان فى حذائه أطنان من الحديد • لم
ينزل بعد ذلك • لزم حجرته الى الأبد • علق أحد الموجودين
يقول « لكن الدماء تشير الى الحائط » ولولت النساء « يا لها من
نهاية بشعة » خطوات البواب تنزل الدرجات على عجل • النسوة
ينسحبن الى غرفهن ، ويغلقن الأبواب • البعض ظللن على العتبة
يثرثرن ويعلقن على الحديث • • « حفظنا من شر المستخبي »
« كل ذلك من جراء تلك الملعونة » « أما كان يكفيها رجلها ؟ »
« ألف امرأة تتمناه زوجا لها » •

خرجت من ركنى • سرت الى الباب مرتعشا ، الى ذلك
الباب المفتوح الذى طالما ترددت ان أقربه وهو مقفل • وكلص
تسللت داخلا • انحرفت يسارا حيث تجمع الرجال يتناقشون

بصوت عال قرب الحائط وقد حوطوا بالجثة • اقتربت وجلا خلف
تلك الظهور التي حجبت عنى القتل • لكن ما لبث أحد المتجمعين
أن لكز جاره طالبا منه أن يفسح لى الطريق • التفت الى الجميع
وانتحوا جانبا توا • انحسر الحاجز ورأيت المجنى عليه فى مواجهة
الحائط • فى صدغه الأيمن جرح غائر • تشوهت قسماات الوجه
الملطخة بالدماء • رأس كروية مائلة • عيان رماديتان باهتتان
الى حد البياض ، تنظران الى السقف ولا تطرفان • فم كما
لو كان قد خيط بخيط قرمزي • يدان مدلتان مبسوطتان مجوفتان
• • ساقاه الممدودتان بدتا طويلتين ، طويلتين ، كذراعى كماشة
جهنمية • وقد كادتا تلسسان الحائط • كانتا تشيران اليه اشارة
اتهام • الدماء سالت على عنقه وسترته • من حوله بركة من
الدم • لوثت الأرض • هممت ان أتراجع ، لكننى عجزت • •
ضاقت دائرة الجمع من حولى • جسمى ثقيل • قدماى لا تقويان
على حملى • رفعت يدي الى عنقى • اصطبغت بلون أحمر قان ،
لم يكن الدم قد جف بعد • • سال دافئا ، لزجا ، مشيرا للربع
والقرف • رأسى الكروية ثقيلة مائلة • أحسست بالنظرات مسلطة
على • خيم الصمت والترقب • كف الجميع عن الكلام • مضوا
ينتظرون ان يروا ما سيكون رد الفعل على عندما أرى قاتلى •
هذا ما دفعهم أن يفسحوا لى الطريق ، وأن يصمتوا وينصتوا •
زاد توترى واضطرابى • انتابنى الدوار فجأة • أحسست اننى

فى بركة الدم ساقع • على أن خطوات سريعة فى تلك اللحظة
بترت الصمت القاتل من حولى • كان الطبيب قد عاد بعد أن
أبلغ البوليس • ابتسم لى • ثم أحاط كفى بذراعيه وقال « وددت
أن أتحدث اليك • انا جارك أيضا » أخذنى الى حجرته عنداسفل
الممر • استقبلتنا امرأة نحيلة ، شاحبة ، لطخت بالكحل جفنيها
وما حول مقلتيها •• حتى بدتا خاويتين مظلمتين • ابتسمت لى
مشفقة • قالت « زال الشر الآن • لم يبق شيء » أول مرة ، منذ
مصيبتى أتلقي رعاية من الآخرين • لكن كيف زال الشر ؟ كيف
يمكن أن يزول الشر ؟ هذان الزوجان لا يعرفان معنى الوحشة
اللانهاية فى غرفتى • عدت أنظر الى الطبيب • زاد الاضطراب
فى عينى • نظرت اليه صامتا نظرة ضياع • كلا ، ليس بمتصور
أن يزول الشر ، طالما ان الحياة ستمضى على ما كانت عليه ،
والفعل المشئوم ذاته سيتكرر الى الأبد ، كطقوس محافظ عليها •
قال الطبيب «لم آت بك الى هنا حتى أجنبك مرأى القتل فحسب
بل لأننى كنت أريد أن أتحدث اليك منذ زمن ، على انفراد •
ألقيت عليك السلام من قبل • حاولت ان ابتسم لك أيضا
عندما التقينا على السلم أكثر من مرة ، ولكنك كنت تتجاهلنى
كنت غائبا عما حولك ؟ لم أدهش • قلت لنفسى لا بد أن فى حياته
مأساة ما ، مثل تلك التى كانت فى حياة المرحوم » راح يفرسنى
بتأن • يجب أن أحذر منه •• لم أكن مطمئنا اليه • ان الطيبة

تثير شكوكي • الى أن بدت الغاية من كل هذا الحديث المعسول،
فقد سألتني مترددا « وددت أن أعرف فحسب ماذا كان في
المظروف الذي كنت بانتظاره » التفت الى زوجته • سقط القناع
عن وجهها وأطل الخبث الكامن • انضمت الى زوجها « أجل،
الخطاب الذي سألت عنه البواب » عادت الكلمات المعسولة
على لسان الطبيب « نحن الآن معك • لن تكون مضطرا الى
عزلتك • الكل يفتح لك ذراعيه ، هنا » لم أجب • لم يكن عندي
ما أجيب به • كان على أن أعود الى منفاي • لم أكن بالخيار ،
فقد كانت الاجابة المطلوبة مني شيئا مستحيلا • كانوا يريدون أن
يعرفوا محتويات المظروف • أحسست في كلماته رعشة تسرى
في بدنه كله • أعرف أن الألم يعيش في قلوب الآخرين • أعرف
أن الأحزان ليست لي فحسب ، ولا العذابات عذاباتي أنا وحدي،
فالجدران كثيرة ومتقاطعة • والغرف متلاصقة • ولكن ما في
الخطاب كلفني كل شيء • احسست باشفاق هائل يجتاحني ، لا
على نفسي ، ولا على جاري القتل فحسب ، بل وعلى جميع
من تحجبهم وتفرقهم الحوائط • انتهت المهزلة • لست أعرف
الآن مكانا أقصده سوى المشرحة •

نهض الطبيب بخفة • وقال لي بابتسامة غامضة « اذن ، أنت
لا تريد أن تتخلي عن عنادك » • دخل البواب ، وقال راضيا « كل
شيء عاد الى حاله • التفت نحوي غاضبا وصاح « أنت ، ماذا

تفعل هنا ؟ » سأل الطبيب « العربية ذات الجياد جاهزة ؟ » أوماً
البواب بالايجاب وقال « والتصريح أيضا » ثم قادنى الى غرفتى
من جديد • وقال لى ، كما كان يقول فى كل مرة « هذه المرة،
لاباب فى الجدار » •

الليلة الخامسة سمعت وقع خطوات هناك • اذن ، ثمة
انسان الى جوارى • حى !! اقتربت من الحائط. قدر الامكان •
الصقت صدغى عليه ••

الفهرس

٣	• • • • • • • • • •	نجوم كثيرة • •
٣٣	• • • • • • • • • •	الخدع الصغيرة • •
٥٩	• • • • • • • • • •	التعليمات • •
٦٧	• • • • • • • • • •	قبيل الانصراف • •
٧٥	• • • • • • • • • •	يوم أن قتل عنتر • •
٩٣	• • • • • • • • • •	كلمة هامة وأخيرة • •
١٠٥	• • • • • • • • • •	كاتب التقارير • •
١١٧	• • • • • • • • • •	ليلة الأحزان • •
١٢٩	• • • • • • • • • •	الثقب • • • •
١٣٥	• • • • • • • • • •	لحظة لقاء • • • •
١٧١	• • • • • • • • • •	الجسد الآخر • • • •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤١٧٥

ISBN ٠ - ١٢٦ - ٢٠١ - ٩٧٧

6



Bibliotheca Alexandrina



0534971

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٥ قرشاً